

سُورَةُ الْقَصَصِ

حين يكتب التدبير الإلهي النصر من قلب الخوف

رحلة في صناعة الأنبياء، وسقوط الطغاة، وعودة الوعد إلى أهله



المؤلف: رَدَّاد السَّلَامِيُّ

سُورَةُ الْقَصَصِ

حين يكتبُ التَّدييرُ الإلهيُّ النصرَ من قلبِ الخوفِ
رحلةً في صناعة الأنبياء، وسقوط الطغاة، وعودة الوعد إلى أهله
المؤلف: رَدَّاد السَّلامِيُّ

المقدمة

ليست سورة القصص حكايةً عن زمنٍ مضى، ولا سيرةً نبيٍّ واجه طاغيةً ثم انتفض المشهد بانتصاره؛ إنها سورةٌ تكشف لنا كيف يعمل تدير الله حين لا تراه العيون، وكيف تُصنع النجاة في اللحظة التي يظنُّ فيها الناس أن أسباب الهلاك قد اكتملت.

في هذه السورة يولد موسى عليه السلام تحت سيف فرعون، ويتربى في قصره، ويخرج من مصر خائفاً، ويصل إلى مدين وحيداً، ثم يعود إليها رسولاً، ويقف بعصاه أمام إمبراطورية كاملة. وبين المهد والرسالة خيطٌ خفيٌّ من العناية، لا ينقطع لحظةً واحدة، وإن بدا لصاحبه أحياناً أن الطريق يتشظى تحت قدميه.

وسورة القصص لا تبدأ من موسى وحده، بل تبدأ من قانونٍ أكبر: أن الطغيان حين يعلو يبلغ في علوه بدايةً سقوطه، وأن الله إذا أراد أن ينصر المستضعفين لم يحتج إلى أن يمنحهم في البدء جيشاً؛ فقد يبدأ النصر بطفلٍ رضيع، وصندوقٍ صغير، وقلبٍ أمّ يرتجف، ونهرٍ يمضي بما لا يعلمه أحد.

المحطة الأولى

حين يستعلي الطاغية ويبدأ السقوط

تفتتح السورة بحروفها المقطعة:

(طسم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)

كأنها تنقل القلب من ضجيج الأرض إلى يقين السماء. فالأرض ترى فرعون وجنوده، والسماء ترى الكتاب المبين؛ الأرض تنظر إلى السيف، والوحي يكشف ما وراء السيف؛ الناس يشاهدون القوة في ظاهرها، والقرآن يريهم المصير المستتر في أحشائها.

ثم يقول الله تعالى:

(تَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

إنها تلاوةٌ بالحق؛ لا تخضع لأساطير المنتصرين، ولا تكتبها أقلام القصور، ولا يرويها مؤرخٌ مأخوذٌ ببريق السلطان. إنها القصة كما يراها الله: يرفع فيها المستضعف الذي احتقره التاريخ، ويفضح فيها الطاغية الذي ملأ الدنيا صخباً ثم لم يستطع أن يحمي نفسه من الماء.

وما أحوج الإنسان إلى أن يسمع القصص من الله؛ لأن البشر كثيراً ما تخذلهم البدايات، فيحسبون العلوّ خلوداً، والضعف فناً، والقصر أماناً، والتابوت هلاكاً. أما الوحي فيرى خاتمة الطريق منذ خطوته الأولى، ويضع الأشياء في مواضعها الحقيقية.

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا)

لم يكن طغيان فرعون مجرد قسوة حاكم، بل كان هندسةً كاملةً للاستبداد. لقد جعل أهل الأرض شيعاً؛ فرّقهم ليلكهم، وقسّمهم لينعمهم من اكتشاف قوتهم، وزرع بينهم الخوف والشك حتى صار كل فريق ينظر إلى الآخر بدل أن ينظروا جميعاً إلى اليد التي تستعبدهم.

فالطاغية لا يعيش بقوته وحدها، بل يعيش بتفكيك المجتمع؛ يُضعف صلاته، ويزرع بين أبنائه العصبية، ويمنح بعضهم امتيازاً مؤقتاً ليستخدمهم في إذلال بعضهم الآخر. إنه لا يكتفي بأن يحتل الأرض، بل يسعى إلى احتلال العلاقات، حتى يصبح الظلم نظاماً تنوزع أدواره بين الناس.

ثم بلغ طغيانه أبشع صوره:

(يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

كان يذبح المستقبل في مهبه؛ لأن الأبناء احتمالٌ قادم، والطغاة يخافون من الاحتمالات. يخافون من طفلٍ لم يتعلم الكلام، لأنهم يعلمون في أعماقهم أن سلطانهم هش، وأن مظلوماً واحداً إذا امتلأ قلبه بالحق قد يصير أمة.

لكن فرعون، وهو يفتش عن الطفل الذي يخشى أن يكون زواله على يديه، لم يكن يعلم أنه بجنوده وسيوفه وحذره كله يسير داخل قدر الله، وأن الطفل الذي يطارده سيوضع في بيته، وسيأكل من طعامه، ويعيش تحت سقفه، وينشأ أمام عينيه.

وهنا تتجلى سخرية التدبير الإلهي من غرور القوة: يملك فرعون الجند، ولكن الله يملك الجهات التي تتحرك إليها أقدامهم؛ يملك فرعون القصر، ولكن الله يختار من يدخل القصر؛ يملك فرعون النهر، ولكن الله يأمر النهر بحمل الطفل إلى الموضع الذي أراده.

المحطة الثانية

وعدُّ الله يولد قبل موسى

قبل أن تذكر السورة ولادة موسى، تكشف الغاية الكبرى من القصة:

(وَنَزِدُ أَنْ ثَمَّنَ عَلَى الَّذِينَ اسْتِضَعُفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿١٠١﴾ وَتُكِنُّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

يا لعظمة هذه الإرادة حين تواجه إرادة الطغيان!

فرعون يريد استئصال بني إسرائيل، والله يريد أن يجعلهم أئمةً ووارثين. فرعون يريد أن يطفئ المستقبل، والله يكتبه لهم. فرعون يعمل سيفه في الأطفال، والله يهيئ من بين أولئك الأطفال رجالاً يمزق ستار ألوهيته الكاذبة.

ولم يقل السياق: ونريد أن ننقذهم فحسب؛ فالنجاة ليست نهاية المشروع الإلهي، بل بدايته. أراد الله أن ينقلهم من الاستضعاف إلى الإمامة، ومن التبعية إلى الوراثة، ومن الخوف إلى التمكين. وهذه نقلة لا يصنعها مجرد تغيير الظروف، بل تصنعها تربية طويلة تعيد بناء الإنسان من داخله، حتى يصير أهلاً للأمانة التي سيتلقاها.

والمدهش أن هذا الوعد العظيم جاء والواقع كله يشهد بضده. لم يكن في الأفق جيش، ولا راية، ولا قوة ظاهرة، بل أرحام خائفة، ونساء يخبنن مواليدهن، ورجال مذبحو الإرادة تحت قهر السنين.

لكن الوعد الإلهي لا يستمد صدقه من ملامح الواقع، بل يستمدّه من قائله. إن الله لا ينتظر أن تتوافر الأسباب ليعدّ؛ بل يعدّ، ثم يخلق لوعده أسبابه، ويقود الأحداث الصغيرة والمتناثرة حتى تصبّ جميعاً في البحر الذي أراده.

المحطة الثالثة

أم بين اليمّ والوعد

(وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ)

تبدأ النجاة بفعل الأمومة الفطري: (أَنْ أَرْضِعِيهِ). ضيّبه إلى صدرك، وأشبعيه من دفتك، واستودعي في دمه أول جرعةٍ من الحنان. قبل أن يُلقَى في الماء ينبغي أن يمتلئ من قلب أمه؛ لأن الله الذي يهيئه لمواجهة الطاغية يفتح حياته بالرحمة.

ثم يأتي الأمر الذي يكاد يخلع القلب:

(فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ)

إنها مفارقة تهز مقاييس الإنسان: إذا خِفَتْ عليه من الموت، فالْقِيهِ فيما يبدو سبباً للموت! إذا أردت حفظه، فأخرجيه من حضنك! إذا اشتد خوفك، فافعلي ما يخالف كل ما يمليه الخوف!

إن الله لا يطلب من أم موسى أن تكون بلا مشاعر؛ فهو الذي خلق في قلبها هذا الحب. لكنه ينقلها من الاعتماد على حضنها إلى الاعتماد على حفظه، ومن الثقة بما تمسكه يدها إلى الثقة بمن لا تغيب عنه قطرة في اليم.

وهذا من أدق دروس التوكل: أن التوكل لا يعني ألا يخاف القلب، بل يعني ألا يقوده الخوف بعيداً عن أمر الله. قد ترتجف اليد وهي تطيع، وقد تمتلئ العين بالدمع وهي تسلم، وقد يشعر الإنسان أن روحه تُنتزع منه وهو يضع أحب الأشياء إليه في مجرى القدر؛ ولكنه، مع ذلك كله، يثق أن ما خرج من يده لم يخرج من يد الله.

ثم جاء البلم في كلمتين:

(وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي)

الخوف يتجه إلى المستقبل، والحزن يتعلق بما فات؛ فجاء الوعد ليحرس قلبها من جهتي الزمان. لا تخافي مما سيقع له، ولا تحزني على فراقه الآن. فالله الذي أمرها أن تلقيه لم يترك قلبها معلقاً في الفراغ، بل قال:

(إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

لم يعدّها بمجرد نجاته، بل كشف لها نهايته البعيدة: سيرجع إليك رضيعاً، ثم يمضي من عندك رسولاً.

بين جملة (أَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ) وجملة (وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) يمتد عمرٌ كامل. ولكن الوعد الإلهي جمع المهد والرسالة في لحظة واحدة؛ لأن المستقبل عند الله ليس مجهولاً، وما نراه نحن طريقاً طويلاً يراه سبحانه كتاباً قد أحاط به عليه.

إن أم موسى لا ترى في تلك اللحظة إلا صندوقاً صغيراً يبتعد فوق الماء، لكن الله يرى رجلاً يقف يوماً أمام فرعون ويقول له كلمة الحق. هي ترى رضيعاً مهدداً، والله يرى نبياً مؤيداً. هي ترى الفراق، والله يرى الردّ والرسالة.

وكم من إنسانٍ نظر إلى لحظةٍ من حياته فظنها النهاية، بينما كانت عند الله أول الطريق!

المحطة الرابعة

النهر الذي حمل الطفل إلى عدوه

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ)

كان يمكن للتايوت أن يرسو عند بيت فقير، أو أن تلتقطه يد بعيدة، لكنه مضى إلى قصر فرعون نفسه؛ لأن الله أراد أن يجعل بيت الطاغية مأوى للطفل الذي سيكون هلاك ملكه على يديه.

(لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا)

لم يلتقطوه بقصد أن يصنعوا عدوهم، لكنهم، من حيث لا يشعرون، شاركوا في تنفيذ الخطة التي كانوا يحاربونها. وهكذا قد يسخر الله عدوَّ دعوته لخدمة الدعوة، ويجعل مكره درجةً في سلم سقوطه، ويخرج من داخل مؤسساته ما ينقض بنيانه.

ثم ألقى الله لموسى حبةً تخرق جدران القصر، فنطقت امرأة فرعون:

(قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَخَذَهُ وَلَدًا)

كانت الرحمة تدخل على فرعون من بيته. كان يذبح أبناء الناس خوفاً على عرشه، ثم يقبل في قصره طفلاً مجهولاً حمله الماء. لم تهزم موسى في تلك اللحظة قوةً تقابل القوة، بل كلمة امرأة حرك الله بها الرحمة في موضع لم يكن يتوقعه أحد.

وهنا تعلبنا السورة أن لله جنوداً لا يراها الطغاة: كلمة تُقال في الوقت المناسب، ومودة تُلقى في قلب، وشفقة تُعترض قراراً، وامراً تُقول: (لَا تَقْتُلُوهُ). وقد تكون هذه الأشياء الرقيقة أقدر على اختراق الحصون من الجيوش.

القوة الظاهرة كانت كلها بيد فرعون، ولكن اللحظة الحاسمة لم يحكمها السيف، بل حكمها معنى خفي وضعه الله في قلب امرأة.

المحطة الخامسة

قلب الأم حين كاد يفضحه الحب

بينما دخل موسى القصر، بقي قلب أمه على ضفة النهر:

(وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا)

كأن كل شيء خرج من قلبها حين خرج موسى من بين يديها. لم يعد فيه متسع لفكرة، ولا قدرة على انتظار، ولا شيء سوى صورة الطفل الذي ابتلعه الأفق.

ولم يقل النص: قلب أم موسى؛ بل قال: (فُؤَادُ)، والفؤاد هو القلب حين تتأجج مشاعره. إنها ليست معلومة عن حزن أم، بل صورة لقلب يشتعل من الداخل، حتى كادت أن تصرخ بسرّها:

(إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ)

كادت أن تقول للناس: ذلك الطفل ابني! كادت غريزة الأمومة أن تهدم ما بنته طاعة الإيمان. وهنا تدرك أن الصالحين لا يُعفون من وطأة المشاعر، وأن اليقين لا يحوّل الإنسان إلى حجر. لقد تلقت وعد الله، ومع ذلك كاد قلبها ينهار.

ولكن العناية التي حفظت الطفل في الماء حفظت قلب الأم على اليابسة:

(لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا)

ما أرحم هذه العبارة! لم يأمرها الله بالصبر ثم يتركها تستخرج الصبر من ضعفها، بل ربط على قلبها. فالسكينة ليست دائماً قدرةً يصنعها الإنسان بنفسه؛ إنها مددٌ ينزله الله حين توشك الروح أن تتصدع.

قد يظن المرء أنه ثبت بقوة طبعه، والحقيقة أن يداً من الرحمة ربطت على قلبه. وقد يحسب أن احتماله العظيم صادر عن صلابته، وما علم أن الله كان يمسك قلبه من الداخل حتى لا يتشقق.

إن صاحب البلاء يحتاج أحياناً إلى أكثر من إزالة البلاء؛ يحتاج إلى أن يربط الله على قلبه وهو يمر به. فربما لم يتغير الخارج بعد، لكن الله يقيم في الداخل حصناً من السكينة، فيصبح القلب أوسع من المصيبة.

المحطة السادسة

العناية التي تعمل من وراء الستار

قالت أم موسى لأخته:

(قُصِّيه)

اتبعي أثره في خفاء، وانظري أين حمله القدر. فالتوكل لا يلغي المتابعة، والثقة بالله لا تمنع الأخذ بالأسباب. لقد ألقت الأم طفلها امتثالاً لأمر الله، ثم أرسلت ابنتها لتتحرى خبره. جمعت بين التسليم والحركة، وبين الوعد والعمل.

(فَبَصَّرْتُ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

كانت الأخت تمشي بعيداً في ظاهرها، قريبة في انتباهها؛ تخفي لفتها حتى لا تثير الريبة. إنها واحدة من الشخصيات الهادئة التي لا تقف في مقدمة المشهد، لكنها تؤدي دوراً عظيماً في إنقاذه. فالمشروعات الكبرى لا يقوم بها الأبطال الظاهرون وحدهم؛ وراء كل نبيٍّ قلوبٌ صادقة تتحرك في صمت، وأيدٍ أمينة لا يعرفها الناس، لكنها معروفة في السماء.

ثم وقع التدبير الألف:

(وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ)

جاء موسى، واضطرب القصر، وعجزت المرضعات، وما علم أحد أن هذا الامتناع الصغير كان حلقةً في سلسلة الوعد الكبير. لقد حفظ الله في فم الطفل سرَّ عودته إلى أمه؛ فلا يقبل ثدياً حتى يأتيه الثدي الذي عرفه.

كم تبدو بعض الموانع شرًّا وهي عين الرحمة! وكم يقلق الإنسان لأن باباً لا يفتح، بينما يكون إغلاقه هو الذي يقوده إلى بابه الحقيقي! لو قبل موسى إحدى المرضعات لبقيت أمه بعيدة، ولكن الله منعه ليعيده إليها.

إن التدبير الإلهي قد يأتي في صورة امتناع، وتعطيل، وجوع، وحيرة. ونحن نتألم لأن الشيء لا يحدث كما نريد، ثم نكتشف لاحقاً أن عدم حدوثه كان هو الجسر الذي عبرنا عليه إلى النجاة.

عندئذ تقدمت أخته في الوقت الذي رتبته الله:

(هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ)

فعاد موسى إلى أمه، لا خلسة هذه المرة، ولا تحت خوف السيوف، بل بحماية القصر نفسه. كانت تخشى أن ترضعه في بيتها فيكتشف أمره، فأعاده الله إليها بأمر من الذين كانت تخافهم، وصارت ترضع ابنها وتتقاضى على ذلك أجراً، وتحرسه سلطة فرعون.

هكذا إذا تولى الله أمراً؛ لا يكفي بأن يرد المفقود، بل يرده مكرماً، مؤمناً، محفوظاً بما لم يخطر على القلب.

(فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

كانت تعلم أن وعد الله حق حين أوحى إليها، لكنها الآن تعلمه علماً ذاقه القلب بعد الارتجاف. فهناك فرق بين أن تعرف الوعد، وأن ترى الوعد عائداً إليك محمّولاً على أيدي الذين ظننت أنهم سيمنعونه.

وهذه هي التربية الأولى في حياة موسى عليه السلام: قبل أن يتعلم الكلام، كان الله يعلم أمه والأمة من بعدها أن الخوف لا يملك المصير، وأن الطاعة، مهما أحكموا قبضتهم، لا يستطيعون أن يمنعوا وعداً أراد الله وصوله.

لقد خرج الطفل من حضن أمه إلى اليم، ومن اليم إلى قصر عدوه، ومن قصر عدوه إلى حضن أمه من جديد. وفي كل انتقال كان الظاهر يقول: خطر، بينما كان القدر يقول: عناية.

وهكذا تضع السورة منذ مطلعها أصلها الأعظم: حين يكون الله هو المدبر، قد يكون الماء أرحم من اليايسة، وقد يكون بيت العدو موضع الحفظ، وقد يكون المنع باب العطاء، وقد يكون الفراق أقصر طريق إلى الرد الجميل.

المحطة السابعة

حين يكتمل الجسد وتتهيا الروح

يمضي الزمن سريعاً بين آيتين. كان موسى طفلاً يرضع في حضن أمه، ثم ها هو يدخل طور الرجولة:

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

بلغ أشده: اكتملت قوته. واستوى: اعتدل بناؤه ونضجت ملكاته. ولم تكن تربية الله له تربية جسد فحسب؛ فقد أعد له قوةً تحمل أعباء الطريق، ثم منحه حكماً يزن به الأمور، وعلماً يبصر به حقائقها.

وما أحوَجُ القوة إلى الحكمة! فالقوة وحدها قد تتحول إلى اندفاع، والعلم دون قلب قد يصير حيلةً باردة. أما الأنبياء فيُهيّؤون بتوازن دقيق: أجساد تقوى على حمل الرسالة، وعقول تدرك مواضع الأشياء، وأرواح لا تنفصل عن عين الله.

ثم تختم الآية بقاعدة تتجاوز موسى إلى كل إنسان:

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

فالإحسان لا يضيع في صمت الأيام. قد لا يرى المحسن ثمرة إحسانه فوراً، لكنه يبني في داخله أهليةً لعطايا لا يعرف موعدها. وكل طاعة صادقة توسّع في القلب موضعاً لنور قادم؛ حتى إذا جاء وقت التكليف وجد الوحي روحاً قد هيأها الإحسان لحمله.

المحطة الثامنة

اللحظة التي كشفت خطورة القوة

(وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا)

دخل موسى المدينة في وقت خَفَّت فيه الحركة وغابت العيون، فوجد مشهداً صغيراً سيعبّر مجرى حياته:

(فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ)

رجل من بني إسرائيل يستغيث، ورجل من قوم فرعون يبطش به. لم يكن موسى قادراً أن يرى الظلم ويسير كأن شيئاً لم يكن؛ ففي نفسه نفورٌ فطري من القهر، وفي دمه انحياز إلى المظلوم. وقد استغاثه الذي من شيعته، فتحركت فيه نخوة النجدة:

(فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ)

لم يرد موسى قتله، وإنما أراد دفعه، لكن الوكرة انتهت إلى ما لم يقصده. وهنا تكشف السورة عن معنى شديد الدقة: قد تكون الغاية عادلة، ويكون أصل الموقف نبيلًا، ثم يفسد الاندفاع وسيلة العمل فتقع نتيجة لم يردّها صاحبها.

لم يكن موسى جباراً يتلذذ بالقتل، بل كان قوياً لم يتعلم بعد كيف يضبط قوته. وكانت هذه الحادثة جزءاً مؤلماً من تربيته؛ فاليد التي ستحمل العصا أمام فرعون لا بد أن نتعلم أن القوة أمانة، وأن نصرة المظلوم لا تعني الإنسان من البصيرة، وأن الحماسة للحق إذا سبقت الحكمة قد تمنح الباطل جرحاً يتعلل به.

نظر موسى إلى الرجل ميتاً، ولم يحاول أن يجمل فعله أو يخترع له الأعذار:

(قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ)

هذه أول علامات صفاء النبوة: الصدق مع النفس بعد الخطأ. فالقلوب المريضة حين تخطئ تعيد صياغة الخطأ حتى يبدو صواباً، وتحمل الآخرين المسؤولية، وتستدعي ألف حجة لتحمي صورتها أمام نفسها. أما موسى فلم يدافع عن صورته؛ بل وقف أمام الحقيقة عارياً من المكابرة.

إن الاعتراف بالخطأ لا يُسقط الإنسان، بل ينقذه من السقوط الأعماق. الخطأ الذي يُعترف به بابٌ إلى التوبة، أما الخطأ الذي تغطيه النفس بالأعذار فيتحول بالتدريج إلى خلق.

ثم قال:

(رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي)

ما أقصر الدعاء، وما أثقل الصدق الذي يحمله!

لم يقل: ربّ، لقد قصدت الخير. ولم يقل: إن الرجل كان من العدو. ولم يجعل عدالة القضية سائراً يحتجّ خلفه من مسؤوليته. قال: (ظَلَمْتُ نَفْسِي). فالإنسان حين يعصي الله لا ينقص من ملك الله شيئاً، وإنما يجرح صفاء نفسه، ويضع بينها وبين النور حجاباً.

وجاء الجواب بلا مسافة:

(فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

بين الذنب والمغفرة كلمة صادقة خرجت من قلب منكسر. لم يحتج موسى إلى طقوس معقدة، ولا إلى وسيط يحمل عنه ندمه؛ رفع اعترافه إلى ربه، فوجد باب المغفرة مفتوحاً.

إن الله لا يريد من التائب فصاحة الاعتذار، بل حقيقة الانكسار. وربّ دعاء قصير حمل من العبودية ما لا تحمله صفحات؛ لأن القلب حين يعرف موضعه من الله تختصر دمة واحدة مسافاتٍ من الكلام.

المحطة التاسعة

من المغفرة إلى الميثاق

لم يكتف موسى بطلب المغفرة، بل أراد أن يحول الندم إلى منهج:

(قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ)

هذه هي التوبة المكتملة: ليست بكاءً على الماضي وحده، بل عهدٌ للمستقبل. فقد أدرك موسى أن النعمة لا تُشكر بمجرد الشاء عليها، وإنما تُشكر بتوجيهها إلى ما يرضي المنعم.

قوته نعمة، فلا ينبغي أن تكون عوناً للمجرم. حكمته نعمة، فلا يصح أن تُستخدم في تزويق الظلم. مكانته في القصر نعمة، فلا يجوز أن تتحول إلى جسر تمر عليه سياسات الطغيان.

وقوله: (فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ) ميثاق أخلاقي عظيم؛ لأن الإجماع لا يقوم بالمجرم المباشر وحده، بل يقوم بمن يزين له، ويصمت عن ظلمه، ويكتب له، ويبرر فعله، ويمنحه شرعيةً أخلاقية، أو يقف خلفه في ساعة البغي.

وقد لا يشارك الإنسان في الضربة، لكنه يشارك في تهيئة المناخ الذي يسمح بها. وربما لم يظلم بيده، لكنه أعان الظالم بلسانه، أو سكوته، أو مكانته، أو خبرته. لهذا لم يقل موسى: لن أكون مجرماً خصب؛ بل قال: لن أكون معيناً للمجرمين.

إن الهداية لا تُقاس فقط بما تفعله من الخير، بل كذلك بما ترفض أن تمنحه من طاقتك للباطل.

المحطة العاشرة

الخائف الذي لم يفقد بوصلته

(فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ)

لا يخفي القرآن خوف أنبيائه؛ لأن النبوة لا تلغي البشرية، وإنما تهذبها وتوجهها. كان موسى خائفاً، يلتفت إلى الجهات، ويتوقع وصول الخبر إلى السلطة. ولم يكن خوفه نقصاً في إيمانه؛ فالخوف الطبيعي استجابة فطرية للخطر، أما المذموم فهو أن يتحول الخوف إلى سيد يأمر الضمير بالتراجع عن الحق.

وفي أثناء ترقبه رأى الرجل الذي استنصره بالأمس يستصرخه مرة أخرى:

(فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ)

وهنا أدرك موسى أن المشكلة ليست دائماً في الخصم وحده؛ فقد يكون من تنتصر له سريع الخصومة، يجرك كل يوم إلى معركة، ويستهلك شهامتك في نزاعاته، ثم يتركك تحمل وحدك أثمان اندفاعه.

فقال له موسى:

(إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ)

لقد تعلم من حادثة الأمس. لم تعد رابطة الانتماء كافية عنده لتبرير كل سلوك. نعم، هذا من شيعته، لكنه مخطئ في كثرة نزاعه. فالعدل لا يعني أن تصفق لمن ينتسب

إليك كيفما فعل، ولا أن يتحول القرب الفكري أو الاجتماعي إلى عصابة تحجب
عنك رؤية الخطأ.

وهذا من أعظم امتحانات الضمير: أن تستطيع إنصاف خصمك، ومراجعة
صاحبك، وآلا تجعل الانتماء بديلاً عن الحق.

فلما أراد موسى أن يبطش بالذي هو عدو لهما، ظن المستغيث أن موسى يقصده،
فقال:

(يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ)

وهكذا خرج السر من فم الرجل الذي نصره موسى. إن بعض من تحسن إليهم قد
يفضحونك عند أول خوف، وقد تتحول النجدة التي بذلتها لهم إلى باب أذى عليك.
وليس كل مستغيث أميناً، ولا كل مظلوم معصوماً من الخلل.

ثم قال:

(إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُحِينَ)

ما أقسى أن يُرمى المصلح بالجبر لأنه أخطأ مرة! وما أسرع الناس إلى اختزال الإنسان
في عثرته، ونسيان قصده وتاريخه وكل ما في قلبه!

لكن الكلمات الجارحة، على ظلمها، قد تحمل للإنسان تنبيهاً يحتاج إليه. كان على
موسى أن يتعلم الفرق بين قوة الإصلاح وجبروت الاندفاع؛ لأن من يريد إصلاح
العالم لا يكفيهِ أن يكون طاهر المقصد، بل لا بد أن تكون وسيلته من جنس غايته.

المحطة الحادية عشرة

رجلٌ جاء من أقصى المدينة

انتشر الخبر، واجتمع المَلَأُ على قتل موسى:

(وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى)

لا تذكر السورة اسمه؛ لأن قيمة الإنسان هنا في موقفه، لا في شهرة اسمه. جاء من أقصى المدينة، والمسافة بعيدة، والخطر قريب، ومع ذلك جاء (يَسْعَى). كأن ضميره كان أسرع من أقدام الذين يتعقبون موسى.

قال:

(يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ)

في داخل نظام فرعون كان ثمة قلب لم يفسده القصر. وهذا درسٌ في عدم التسرع بتسوية الناس جميعاً؛ فقد يخرج من أقصى البيئات رجل يحمل أمانة التحذير، وقد يوجد داخل مؤسسات الظلم من بقي ضميره حياً، ينتظر لحظةً ينقذ فيها مظلوماً.

لم يكتف الرجل بالتعاطف الصامت. كان يمكن أن يقول في نفسه: مسكين موسى، ليت الخبر يصله. لكن النصرة الصادقة تحوّل المشاعر إلى حركة؛ فسعى وخاطر وأبلغ.

كم من إنسان يزعم أنه يحب الحق، لكنه لا يخطو نحوه خطوة! وكم من ضمير يتألم للمظلوم، ثم يتركه يساق إلى مصيره لأنه يخشى تكلفة الكلمة! أما هذا الرجل فقد أدرك أن المعلومة التي يملكها أمانة، وأن تأخيرها قد يساوي روحاً.

المحطة الثانية عشرة

الخروج الأول: لا جيش ولا عصا

(نَخْرِجْ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ)

هذا هو موسى الذي سيعود يوماً إلى المدينة نفسها رسولاً. لكنه يخرج الآن وحيداً، بلا زاد ظاهر، ولا رفيق، ولا خطة مكتملة. خرج خائفاً، ولم يخجل القرآن من تكرار وصف خوفه؛ لأن السورة تريد أن ترينا المسافة الهائلة بين موسى المطارد وموسى المواجه.

الأنبياء لا يولدون عند نهاية الطريق. إنهم يُربَّونَ خطوةً خطوة، ويعبرون أودية الخوف حتى يتعلموا أن الأمن ليس في غياب الخطر، وإنما في حضور الله.

رفع موسى قلبه إلى السماء:

(قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

لم يقل: يا رب، لماذا وقع هذا؟ ولم يستسلم لجلد الذات بعد خطئه. تاب، وغفر له، ثم تحرك. إن التوبة لا تعني أن يبقى الإنسان سجين عثرته، يعاقب نفسه إلى الأبد؛ بل أن يأخذ من الخطأ هدايته، ثم يستأنف السير إلى الله.

خرج موسى من مصر، لكنه كان في الحقيقة يخرج من طور إلى طور. خرج من حياة القصر إلى مدرسة الصحراء، ومن حماية المكانة إلى التجرد، ومن معرفة المدن إلى معرفة نفسه.

قد يبدو فقدان الموقع انكساراً، بينما يكون تحريراً من قيد خفي. وقد يخرج الإنسان من بابٍ يظنه باب الهزيمة، ثم يكتشف أنه كان مدخلاً إلى رسالته.

المحطة الثالثة عشرة

الطريق إلى مدين

(وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ)

لم يكن معه دليل أرضي، فاستدعى دليل السماء. لم يسأل الله بلوغ مدين فحسب، بل سأله (سَوَاءَ السَّبِيلِ): الطريق المستقيم الذي لا يضل بصاحبه، طريق الأرض وطريق المصير معاً.

لقد فقد موسى في لحظات أشياء كثيرة: بيته، ومكاته، وأمنه، وبيئته التي يعرفها. لكنه لم يفقد قدرته على التوجه إلى الله. وهذه هي الثروة التي إذا بقيت للإنسان لم يصبح فقيراً حقاً: أن يعرف، حين تلتبس الجهات، إلى من يرفع قلبه.

ربما لم يكن موسى يعرف ما الذي ينتظره في مدين؛ لم يكن يعلم أن وراء الصحراء بئراً، وأن عند البئر امرأتين، وأن خلفهما بيتاً سيجد فيه الأمان، وزوجةً، وعملاً، وعشر سنين من التربية الهادئة. كان يرى الطريق الخالي فقط، بينما كان الله قد أودع مستقبله عند نهايته.

وهكذا نمشي نحن في كثير من أيامنا: لا نرى إلا الخطوة التالية، بينما تكون رحمة الله قد سبقتنا إلى الموضع الذي نتجه إليه، وهيات هناك أشخاصاً لم نعرفهم بعد، وأرزاقاً لم نخطر لنا، وأجوبة لدعوات لم نكد نفرغ من قولها.

كان موسى خائفاً يترقب، لكنه كان يتحرك. وهذا فرق ما بين الخوف الذي يشلّ الإنسان والخوف الذي يصاحبه إلى باب النجاة. لم ينتظر حتى يختفي اضطرابه، بل سار بقلب مضطرب إلى ربه.

إن الشجاعة ليست أن ينعدم الخوف، وإنما أن تعرف الطريق على الرغم منه. وأن تقول، وأنت في صحراء الاحتمالات:

(عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ).

المحطة الرابعة عشرة

عند ماء مدين: حين يكشف التعب معدن الإنسان

بعد سفرٍ شاق، ووحدةٍ طويلة، وخوفٍ لم يهدأ تماماً، بلغ موسى ماء مدين:

(وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ)

وجد حركةً صاخبة، ورعاةً يتدافعون إلى الماء، وكلُّ امرئٍ مشغولٍ بشأنه. وكان موسى غريباً لا يعرفه أحد، متعباً لا ينتظر منه أحد شيئاً، مطارداً يحمل همه على كتفيه. وفي مثل هذه الحال يضيق الإنسان عادةً بنفسه عن غيره؛ فلمنحك يرى ألمه أوسع من آلام العالم، ويشعر أن له الحق في أن ينكفي على جرحه.

لكن موسى لمح، من وراء الزحام، مشهداً لم يسمح له ضميره أن يعبر عنه:

(وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ)

امرأتان تقفان بعيداً، تجبسان غنمهما عن مزاحمة الرجال، وتنتظران أن يفرغ الرعاة. لم تكونا تصرخان طلباً للعون، ولم نتقدما لنتزعا حنهما بالقوة؛ كانتا تذودان غنمهما في صمت، وتحملان مشقة الحاجة مع كرامة النفس.

اقترب موسى وسأل سؤال المروءة:

(قَالَ مَا خَطْبُكُمَا)

لم يبدأ بعرض بطولته، ولم يتدخل تدخلاً أعمى؛ سأل أولاً ليفهم. فالنخوة بلا فهم قد تتحول إلى عبث، أما الرحمة البصيرة فتستمع قبل أن تتصرف.

قالتا:

(لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)

في جملة واحدة انكشفت الحكاية كلها: نحن لا نزاحم الرجال، ولا نخرج طلباً للظهور، وإنما ألبأتنا حاجة البيت؛ فأبونا شيخ كبير لا يقوى على هذا العمل.

لم تطيلا الشكوى، ولم تستعرضا ضعفيهما، بل شرحتا الضرورة بعبارة تحفظ الكرامة. وفي جوابهما صورة من العفة النبيلة: حاجة لا تهدم الحياء، وقوة لا تنكر للأنوثة، وعمل لا يحول الضرورة إلى فوضى أخلاقية.

ولم يقل موسى كلاماً كثيراً:

(فَسَقَى لَهُمَا)

فالمرءة الصادقة قليلة الضجيج. لم يشترط أجراً، ولم ينتظر شكراً، ولم يقل لهما: هل تعلمان من أنا؟ ولم يحوّل حاجتهما إلى فرصة لإظهار فضله. رأى عملاً ينبغي أن يُنجز، فأُنجزه، ثم انسحب من المشهد.

هنا يظهر معدن موسى الحقيقي: كان جائعاً فأطعم غيره من قوته، وكان خائفاً فصنع لغيره أماناً، وكان محتاجاً فلم يجعل حاجته ذريعةً إلى القسوة. لقد فقد البيت، لكنه لم يفقد الخلق؛ وخسر أسباب الراحة، لكنه لم يخسر إنسانيته.

إن المحنة لا تخلق معدن الإنسان من العدم؛ إنها تكشفه. فإذا بقي الخير فيك وأنت متعب، وبقيت رحيماً وأنت مجروح، وبقيت أميناً حين لا يراك أحد، فذلك من أصدق دلائل حياة القلب.

المحطة الخامسة عشرة

تحت الظل: دعاء الفقير الذي لا يفرض على الله صورة العطاء

بعد أن سقى لهما:

(ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ)

لم يتبعهما ليدركهما بصنيعه، ولم يقف عند الباب ينتظر المكافأة. مضى إلى الظل كما يمضي الغريب الذي لا يملك في الأرض سوى مساحة تستره من الشمس.

كان قد خرج من مصر خائفاً، وقطع الطريق وحيداً، وبلغ مدين بلا مال ولا أهل ولا مأوى. اجتمع عليه الجوع والغربة والإعياء؛ ومع ذلك لم يسأل المرأتين طعاماً، ولم يعلن حاجته أمام الناس. رفعها إلى من يعلم السر قبل أن يُقال:

(فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)

يا له من دعاء يحمل أدب العبودية كله!

لم يحدد الخير، لأن الله أعلم بما يصلحه. لم يقل: أطعمني، أو آوئني، أو زوّجني، أو آمن خوفي؛ بل أظهر فقره وترك لكرم الله اختيار العطاء. وكأثماً يقول: يا رب، كل خير تنزله إليّ أحتاجه، وكل رحمة تبعثها نخوي أنا فقير إليها.

الفقر إلى الله ليس فقر الجيب وحده، بل حقيقة الوجود. فالإنسان فقير إلى الله في قوته كما هو فقير إليه في ضعفه؛ فقير إليه حين يملك كما هو فقير إليه حين يُحرم؛ يحتاج أن يحفظ الله عليه قلبه أكثر مما يحتاج أن يملأ يده.

وفي الدعاء لفظ (أَنزَلْتَ)، كأن الخير يأتي من علو الرحمة إلى أرض الحاجة. فما عند الله لا تمنعه قلة الأسباب، ولا تحول دونه وحشة الطريق. قد يجلس الإنسان تحت شجرة لا يملك شيئاً، وفي السماء يهيأ له بيت، وعمل، وزوج، وأمان.

كان موسى يطلب خيراً، وكان الخير قد بدأ يمشي إليه.

المحطة السادسة عشرة

استجابة تمشي على استحياء

(فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ)

استجاب الله دعاءه لا بصوت يهتف من السماء، بل بخطوات هادئة تأتيه من الطريق.

جاءته إحداهما، لكن القرآن لم يجعل المجيء وحده موضع الصورة؛ بل صور هيئة مشيا: (عَلَى اسْتِحْيَاءٍ). فالحياء لم يكن تفصيلاً زائداً في شخصيتها، بل كان الروح التي تكسو حركتها وكلامها. لم يمنعها الحياء من أداء المهمة، ولم يدفعها أداء المهمة إلى إسقاط الحياء؛ فجمعت بين الوضوح والعفة.

قالت:

(إِنَّ أَيْ يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا)

نسبت الدعوة إلى أبيها من أول كلمة، وذكرت سببها بوضوح؛ فأغلقت أبواب الظن، وجعلت الخطاب مستقيماً لا التواء فيه. وهذا من جمال الطهر: ليس غموضاً ولا ارتباكاً، بل وضوحٌ تحرسه الحدود.

وكان من الممكن أن يرفض موسى الأجر؛ لأنه لم يسق لهما طلباً للثمن. لكن الإخلاص لا يعني رفض فضل الله إذا جاء. لقد أحسن بلا شرط، ثم جاء الرزق من حيث لم يطلبه من الناس.

كم من دعاء لا تأتي إجابته في الصورة التي رسمناها! نسأل الله رزقاً فيرسل إلينا إنساناً، ونسأله أماناً فيفتح لنا باب بيت، ونسأله مستقبلاً فيضع أماناً عملاً صغيراً يبدو عابراً. ومن لم ينتبه إلى طرائق الله قد يقف أمام الإجابة وهو يظنها حادثة عادية.

المحطة السابعة عشرة

لا تخف: الكلمة التي كان ينتظرها الغريب

دخل موسى على أبي المراتين، وقصّ عليه قصته:

(فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ)

هنا يجد موسى للمرة الأولى منذ خروجه صدرًا آمنًا يضع فيه حكايته. إن الإنسان لا يحتاج دائماً إلى من يحلّ مشكلته؛ قد يحتاج أولاً إلى من يصغي إلى قصته دون اتهام، ويستقبل خوفه دون استغلال.

قصّ موسى القصص: القتل الذي لم يقصده، والمؤامرة التي أحاطت به، والخروج الذي ألقاه في الصحراء. ولم يقدم نفسه بصورة البطل الكامل؛ حكى ما وقع بصدق، بما فيه من ضعف وخطأ وخوف.

فقال له الشيخ:

(لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

كانت (لَا تَخَفْ) أول سقْفٍ من الطمأنينة يستظل به قلب موسى بعد أيام الترقب. قالها له رجل حكيم يعرف حدود سلطان فرعون، ويعلم أن مدين ليست تحت قبضته.

وقد يرسل الله إلى الإنسان كلمة واحدة تعيد ترتيب روحه. لا تغيّر ماضيه، لكنها تغير موضع الماضي في قلبه. لقد ظل موسى يتحرك تحت وطأة المطاردة، فجاءته الكلمة: انتهى الخطر، أنت هنا آمن.

وما أكرم البيوت التي إذا دخلها الخائف قيل له: لا تخف! وما أنبل القلوب التي لا تستخدم ضعف الغريب لإذلاله، بل تمنحه الأمان قبل أن تسأله ماذا يستطيع أن يقدم!

لم يكن موسى يعرف وهو يغادر مصر أن الأمان ينتظره في بيت شيخ لا يعرف اسمه. لكن الله الذي أخرجه من الخطر لم يخرج به إلى الفراغ؛ كان يقوده إلى موضع التربية التالية.

المحطة الثامنة عشرة

القوي الأمين: الكفاءة حين يحرسها الضمير

قالت إحدى المراتين لأبيها:

(يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)

كلمتان تلخصان ميزاناً كاملاً لاختيار من تُسند إليهم الأعمال: القوة والأمانة.

فالقوة بلا أمانة خطرٌ متحرك؛ تمنح صاحبها القدرة على الإفساد. والأمانة بلا قوة قد تكون نيةً طيبة عاجزة عن أداء المسؤولية. وإنما يصلح العمل حين تجتمع الكفاءة التي تنجز، والضمير الذي لا يخون.

رأت قوته حين سقى لهما، ورأت أمانته في طريقته وحدوده وسلوكه. لم تكن القوة عند موسى استعراضاً للعضلات، بل مبادرةً إلى رفع المشقة. ولم تكن الأمانة شعاراً يقوله، بل هيئةً ظهرت في تصرفاته.

إن الصفات الحقيقية لا تحتاج دائماً إلى شهادات طويلة؛ تظهر في موقف. قد تكشف ساعة ضيق عن أمانة إنسان أكثر مما تكشفه سنوات الكلام، وقد تدل حركة عفوية على خلق راسخ لا تستطيع الخطب أن تصنعه.

وفي قولها جراً مؤدبة على إبداء الرأي. لم تكن ابنةً هامشية في بيتها؛ رأت حاجة الأسرة، واختبرت الرجل، وقدمت مشورتها لأبيها. وهكذا يبني القرآن صورة البيت السوي: حياءً لا يلغي العقل، وطاعةً لا تمنع المشورة، وأبوةً تسمع الرأي ولا تحتقره.

المحطة التاسعة عشرة

من الغربة إلى البيت

قال الشيخ لموسى:

(إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ)

كان موسى منذ قليل تحت شجرة يقول: (إِنِّي لِمَا أُنْزِلَتْ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)، وها هو
الخير ينزل إليه واسعاً: عمل، ومأوى، وزواج، وأسرة، وأمان.

لم يعطه الله لقمةً تسد جوع يومه فحسب؛ أعاد بناء حياته كلها.

إن كرم الله لا يقف عند حدود السؤال. نحن ندعوه من ضيق اللحظة، وهو يجيبنا من
سعة علمه بمستقبلنا. نسأله حلاً واحداً، فيرتب لنا حياة؛ نطلب ظلاً من شمس عابرة،
فيهب لنا بيتاً نقيم فيه أعواماً.

وكان العرض واضحاً كريماً. لم يستغل الشيخ حاجة موسى، ولم يساومه على خوفه، بل
أقام العلاقة على عقد معلوم، ومدة معلومة، وحق متبادل.

ثم قال:

(فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ)

إنها أخلاق التعاقد حين يظل الإنسان إنساناً: وضوح بلا غموض، وسماحة بلا
استغلال، وحرص على ألا تتحول حاجة الطرف الآخر إلى فرصة لإغاثته.

وختم بقوله:

(سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)

لم يترك نفسه تزكيةً قاطعة، بل علّق رجاء صلاحه على مشيئة الله. فالإنسان الصادق
لا يغير بمعرفته لنفسه، وإنما يرجو أن يوفقه الله ليكون كما وعد.

فقال موسى:

(ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا تَقُولُ وَكِيلٌ)

دخل موسى البيت لا متفضلاً ولا تابعاً ذليلاً، بل طرفاً في ميثاق تحفظه كلمة واضحة، وشهد عليه الله. فالكرامة لا تعارض الحاجة، والوفاء لا يقوم على الغموض، وإنما على تحديد الحقوق والواجبات.

المحطة العشرون

عشر سنواتٍ في مدرسة الصمت

تسكت السورة عن تفاصيل تلك السنين. لا تحدثنا عن أيام الرعي، ولا عن الفصول التي مرت، ولا عن حوارات البيت. لكن هذا الصمت نفسه بليغ، فقد كانت سنوات مدين زمن التكوين البطيء الذي لا تصحبه العناوين الكبيرة.

انتقل موسى من ضجيج القصر إلى سكونية المرعى، ومن اضطراب المدينة إلى اتساع الصحراء، ومن حياة الامتياز إلى كسب اليد. كان يقود الغنم بعد أن عاش قريباً من عرش، وكأن الله ينقي روحه من آثار القصر، ويعلمه الصبر على الضعيف، وجمع المتفرق، ومراقبة الطريق.

وللرعي صلة خفية بالقيادة: فالراعي لا يدفع القطيع كله بقوة واحدة، بل يعرف المتأخر، ويرد الشارد، ويحمي الضعيف، ويختار مواضع الماء، ويسهر حين تمام الرعية. ومن لم يتعلم الرحمة بما تحت يده قد لا يحسن حمل أمانة البشر.

كانت تلك السنوات تبدو، في ظاهرها، ابتعاداً عن القضية التي سيُبعث موسى من أجلها. فرعون لا يزال في مصر، وبنو إسرائيل لا يزالون مستضعفين، وموسى يرعى

الغنم في أرض بعيدة. لكن الله لا يستعجل إنضاج رسله؛ لأن بطء الإعداد ليس تأخراً عن الموعد، بل هو جزء من الموعد.

نحن نقيس العمر بما نجزه في الخارج، والله قد يجعل أعظم إنجازات بعض السنين ما يبينه في الداخل. وقد نظن فترة السكون فراغاً، وهي عند الله ورشة خفية لإعداد الروح.

إن موسى الذي خرج من مصر مندفعاً، قادراً على أن تقضي وكزته على رجل، سيعود إليها بعد السنين أكثر سكيناً، يحمل قوة روضتها الحكمة، ونفساً صقلها العمل، وقلباً عرف الغربة والحاجة والأمان بعد الخوف.

لم تكن مدين منفى خارج الخطة؛ كانت قلب الخطة.

المحطة الحادية والعشرون

العودة التي تخفي وراءها نداء الرسالة

(فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ)

انتهت سنوات مدين، وتحرك موسى بأهله عائداً. لم يعد ذلك الشاب الهارب وحده، بل صار زوجاً وقائد أسرة، يحمل خلفه تجربة طويلة من العمل والصبر.

لكن الطريق إلى المستقبل مرّ بالمكان الذي سيولد فيه التكليف:

(أَنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا)

في ظلمة الطريق لمح ناراً. ولم يكن يطلب رسالة، بل كان يبحث عن دفء أو خبر يهديه السبيل:

(قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ)

خرج يبحث عن قبس، فوجد الوحي. طلب خبر الطريق، فحُمِّل خبر السماء. أراد ناراً تدفئ الجسد، فأنحه الله نوراً سيوقظ أمة.

كم تبدأ التحولات الكبرى من حاجات صغيرة! يمضي الإنسان نحو شيء يظنه نهاية قصده، فإذا بالله يفتح عنده باباً لم يخطر له. موسى لم يكن يعلم أن تلك النار فاصلة بين عمرين: قبلها كان راعياً عائداً بأهله، وبعدها سيكون رسولاً عائداً إلى فرعون.

وهكذا يقود الله عبده إلى مواعده من خلال حاجته. البرد الذي دفع موسى نحو النار لم يكن حادثاً على هامش الرسالة؛ كان خطوةً إليها. والته الذي جعله يطلب خبر الطريق كان هو الطريق إلى النداء.

لقد وصل موسى إلى الموضع المبارك، ووقف وحده في حضرة التكليف. وفي لحظة واحدة تكشفت له حكمة الرحلة كلها: الطفل الذي حفظه الله في اليم، والشاب الذي أخرجه من مصر، والغريب الذي آواه في مدين، والراعي الذي رباه في الصحراء — كلهم كانوا رجالاً واحداً يُصنع لهذه الساعة.

وسوف يسمع الآن النداء الذي يعيد تعريفه وتعريف حياته كلها:

لقد انتهى زمن الفرار من فرعون، وبدأ زمن العودة إليه برسالة الله.

المحطة الثانية والعشرون

النداء من شاطئ الوادي الأيمن

(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى
إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

وصل موسى إلى النار التي أبصرها، فإذا المكان أوسع من حاجته، والمحطة أعظم من طلبه، والصوت يملأ واديه الداخلي بمعنى لم يكن يتوقعه.

(يَا مُوسَى)

نودي باسمه؛ لأن الله لم يختَر رجلاً مجهولاً من نفسه، بل اختار موسى بكل ما مر به: الطفل الذي عرف اليم، والشاب الذي عرف الندم، والغريب الذي عرف الصحراء، والراعي الذي عرف الصبر. لم تُلغ الرسالة ماضيه، بل كشفت له أن كل ما مضى كان إعداداً لها.

ثم جاء التعريف الذي تتضاءل عنده كل قوى الأرض:

(إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

أنت لا تعود إلى فرعون باسمك، ولا تعتمد على قوتك، ولا تواجه ملكه بتاريخك؛ إنما تعود باسم رب العالمين. وفرعون الذي ادعى الربوبية ليس إلا فرداً ضئيلاً داخل العالمين الذين يملكهم الله.

هنا يبدأ تحرير موسى قبل أن يبدأ تحرير بني إسرائيل؛ فلا يستطيع الإنسان أن يقف أمام طاغية حتى يتحرر في داخله من هيئته. وأعمق ما يحرق القلب من سطوة المخلوق

أن يعرف عظمة الخالق. فإذا امتلأ القلب بـ(رَبِّ الْعَالَمِينَ)، انكمش فرعون إلى حجمه الحقيقي: عبدٌ ضعيف ينازع ربًّا لا يخرج عن ملكه.

كانت النار التي طلبها موسى لتدفع أهلَه موعداً أضاء له حقيقة الوجود. فمن عرف الله لم يعد العالم في عينه كما كان؛ تتغير أوزان القوة، وتسقط الأصنام الباطنة، ويعلم القلب أن ما على الأرض كله لا يقوم لحظة واحدة إلا بإذن السماء.

المحطة الثالثة والعشرون

العصا التي سقط معها وهمُّ الاعتماد على الأسباب

(وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ)

كانت العصا رفيقة سنواته؛ يتوكأ عليها، ويهش بها على غنمه، ويجد فيها منفعةً مألوفة. فلما جاءه التكليف كان أول الأمر أن يلقياها.

كأن الرسالة تعلّمه منذ بدايتها أن الأدوات لا تعمل بذاتها، وأن الشيء الذي ألفه في يده لا يملك حقيقته خارج أمر الله. العصا عصاً حين يشاء الله، وآيةً مهيبه حين يشاء؛ جمادٍ مألوف في يد الراعي، ثم برهان يهز عرشاً حين تدخله القدرة الإلهية في مجال الرسالة.

ألقاها موسى:

(فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ)

جرى موسى ولم يلتفت. وهذا مشهد صادق في بشريته؛ فلم يتحول بمجرد النداء إلى رجل لا يفعل، ولم يُنزع منه الخوف الفطري. رأى ما يفزع، ففر.

لكن النداء لحقه بالسكينة:

(يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ)

كم تكررت الطمأنينة في حياة موسى! قيل لأمه: (وَلَا تَخَافِي)، وقال له الشيخ في مدين: (لَا تَخَفْ)، وها هو يسمعها الآن من ربه: (وَلَا تَخَفْ).

كأن حياة موسى مسيرة ينقل الله فيها قلبه من خوف إلى أمان، ثم من أمان إلى تكليف. فالأمان ليس دائماً غياب ما يخيف، وإنما كلمة من الله تستقر في القلب فتجعله أوسع من الخطر.

(أَقْبِلْ) — لا تهرب من الآية التي ستواجه بها فرعون. عد إلى موضع خوفك، وانظر إليه في ضوء وعد الله. فالذي أخافك حين ظننته خارج السيطرة يصبح أماناً حين تعرف أنه في يد رب العالمين.

وهذه تربية لكل حامل رسالة: ليس المطلوب ألا يفر قلبك لحظة، بل أن يعود حين يناديه الله. الشجاعة الإيمانية ليست انعدام الرجفة؛ إنها الاستجابة لكلمة: (أَقْبِلْ).

المحطة الرابعة والعشرون

يَدٌ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ

ثم جاءته الآية الثانية:

(اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ)

اليد نفسها التي وكر بها الرجل يوماً، وذوقت بسببها مرارة الندم، تخرج الآن آيةً مضيئة من غير سوء. كأن العناية تعيد تأهيل القوة التي أخطأت، فلا تلغيها، بل تطهر وجهتها وتدخلها في خدمة الحق.

إن التوبة لا تقطع يد الإنسان عن المستقبل؛ إنها تعيدها نقيّةً إلى ميدان العمل. وما وقع منك بالأمس لا يلزم أن يبقى تعريفك إلى الأبد، إذا صدقت في الرجوع إلى الله. قد يجعل الله موضع ضعفك القديم نفسه شاهداً على رحمته الجديدة.

ثم قال تعالى:

(وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ)

ما ألطف هذا التعبير! كأن موسى طائرٌ أفزعه المشهد، فانتشر جناحه من الخوف، فأمر أن يضمه إلى نفسه ليستعيد سكونه.

والإنسان حين يفرع يتبعثر في داخله، وتندفع مشاعره في الجهات؛ فيحتاج إلى أن يضم نفسه، وأن يجمع قلبه تحت معنى الثقة بالله. إن السكينة عودة الروح من تشتتها، واجتماعها حول يقين واحد: أن الأمر كله لله.

(فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)

لم تكن العصا واليد استعراضاً للخوارق، بل برهانين يحملان رسالة. فالآية لا تأتي لتبهر العين فحسب، وإنما لتفتحها على الحقيقة. وحين يطلب الإنسان الخوارق لذاتها يفوته المقصد؛ لأن المقصود من النور أن ترى به الطريق، لا أن تظل مأخوذاً بلبعانه.

المحطة الخامسة والعشرون

النبيُّ الذي يعرض مخاوفه على ربه

عندما كُلِّفَ موسى بالعودة إلى فرعون، لم يتظاهر بقوة لا يشعر بها، بل كشف مخاوفه أمام الله:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ)

كان الماضي لا يزال حاضراً في ذاكرته. مغفرة الله طهرت ذنبه، لكنها لم تُلغ الآثار الدنيوية للحادثة؛ فلا يزال القوم يطلبونه، ولا يزال احتمال القتل قائماً.

وهنا فرق بين اليقين والتهور. فالمؤمن لا ينكر الأخطار، ولا يسمي العمى شجاعة؛ يراها كما هي، ثم يضعها بين يدي الله. موسى لم يقل: بما أن الله أرسلني فلن أفكر في الخطر، بل قال: أخاف أن يقتلون. وكان صدقه في عرض المخاوف جزءاً من عبوديته.

ثم ذكر حاجته الأخرى:

(وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ)

يا لنبل موسى حين يعترف بفضل أخيه! لم تمنعه النبوة من أن يرى أن هارون أفصح منه لساناً. النفوس الصغيرة تخشى من موهبة القريب، وتحسب الاعتراف بفضل انتقاصاً منها؛ أما موسى فكان يحمل قضية أكبر من ذاته، ولذلك أراد لها أفضل ما يعين على بلاغها.

لم يقل: أنا المختار، وأنا أحق بالكلام كله. بل طلب شريكاً يعينه ويصدقّه. فصاحب الرسالة الصادق لا يبحث عن احتكار المشهد، وإنما عن تمام المهمة. يفرحه أن يقوى الحق، سواء جرى على لسانه أو لسان أخيه.

وفي طلبه معنى بديع للأخوة: لم يطلب هارون خادماً ولا تابعاً، بل (ردءاً)؛ قوةً تسنده، وظهراً يقويه. حتى الأنبياء يحتاجون بعد عون الله إلى قلب بشري صادق يقف بجوارهم. إن عظمة التكليف لا تلغي الحاجة إلى المؤازرة، بل تزيدها وضوحاً.

المحطة السادسة والعشرون

سنشد عضدك بأخيك

جاء الجواب الإلهي:

(قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ)

لم يقل: سنرسل أخاك معك فحسب، بل جعل الأخ قوةً تشد العضد. فبعض الناس ليسوا مجرد رفقة في الطريق؛ إنهم جزء من قوتنا التي يمنحنا الله إياها.

ما أجمل الأخوة حين تكون شدةً للعضد لا حملاً عليه؛ حين يصبح الأخ سكيناً في الخوف، ولساناً عند العجز، وثبتاً عند التكذيب. وما أقسى القرابة إذا تحولت إلى منافسة تهدم الإنسان بدل أن تسنده!

لقد استجاب الله لموسى، لكنه لم يزح هارون إلى هامش القصة؛ رفعه إلى مقام النبوة، وجعل العون الذي طلبه موسى كرامةً لأخيه أيضاً. فدعوة الصادق لأخيه قد تكون باب اصطفاء وخير لا يعلم مداه.

ثم قال:

(وَنَجْعَلُ لَكُمْ سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا)

كان موسى يخشى أن يقتلوه، فجاءه الوعد لا بنفي المواجهة، بل بمنح سلطان يحول بينهم وبين الوصول إليه. فالحماية الإلهية لا تعني أن الطريق سيكون خالياً من التهديد؛ تعني أن التهديد لن يتجاوز الحد الذي أذن الله به.

(أَتَمُّوْا وَمَنْ أَتَّبَعُكُمَا الْغَالِبُونَ)

يا لعظمة هذا الوعد حين يُقال لرجلين يقفان أمام دولة! لا جيش معهما، ولا مال، ولا سلطة أرضية؛ فرعون وراءه المملأ والجنود، وهما معهما الآيات وكلمة الله. ومع ذلك حُسمت النتيجة قبل بدء المواجهة:

(أَتَمُّوْا وَمَنْ أَتَّبَعُكُمَا الْغَالِبُونَ)

فالغلبة في ميزان الوحي لا تُحسب بعدد السيوف، بل بالجهة التي يقف معها الحق. وقد يمتد الطريق وتشتد المحنة، لكن الوعد لا يتغير؛ لأن الله لا يعد بناءً على توازن القوى الظاهر، بل بناءً على سلطانه الذي يحيط بالقوى كلها.

المحطة السابعة والعشرون

العودة إلى باب الخوف

عاد موسى إلى مصر. عاد إلى المدينة التي خرج منها يترقب، وإلى القوم الذين يأتمرون به ليقتلوه، وإلى القصر الذي نشأ فيه، وإلى الرجل الذي كان اسمه وحده يلقي الخوف في النفوس.

لكن الذي عاد لم يكن هو الذي خرج.

خرج موسى من مصر يقول:

(رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

وعاد إليها يحمل جواب الدعاء في قلبه، ويسمع وعد الله:

(فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكَ)

خرج فرداً مطارداً، وعاد رسولاً مؤيداً. خرج يبحث عن بلد يأويه، وعاد ليخرج أمة من الأسر. خرج والخوف يحدق به من كل جهة، وعاد ليقف في مركز الخوف نفسه ويكشف فراغه.

وهذا من سنن التربية الإلهية: قد يخرجك الله من المعركة زمناً، لا لتتنازل عنها، بل ليعيدك إليها بقلب آخر. فالانسحاب المؤقت ليس دائماً هزيمة، كما أن البقاء ليس دائماً شجاعة. قد تكون النجاة مرحلةً من الإعداد للعودة.

كان على موسى أن يعرف الله في الصحراء قبل أن يواجه من ادعى الربوبية في القصر. وكان عليه أن يذوق الفقر إلى ربه قبل أن يقف أمام الغني بملكه. وأن يتعلم الصبر في مدين قبل أن يحمل عناد بني إسرائيل. وأن يعرف الضعف الإنساني في نفسه حتى يقود المستضعفين برحمة لا باستعلاء.

وها هو الآن يدخل من الباب الذي خرج منه، لكن بين الخروج والعودة عشر سنوات من صناعة الله.

المحطة الثامنة والعشرون

حين جاءت الآيات فقالوا: سحرٌ مفترى

(فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرٍ)

لم تكن الآيات غامضة، بل كانت (بَيِّنَاتٍ). لكن المشكلة لم تكن في ضعف الدليل؛ كانت في فساد الإرادة التي تستقبله.

فالإنسان لا يرفض الحق دائماً لأنه لم يفهمه؛ قد يرفضه لأنه فهم ما يقتضيه. لو آمن فرعون بآيات موسى لسقط ادعاؤه، وانتهت امتيازاته، واضطر إلى تحرير من بنى

سلطانه على استعبادهم. ولذلك لم يكن يبحث عن الحقيقة، بل عن كلمة يصرف بها الناس عنها: (سحر).

هكذا يفعل الباطل حين يعجز عن نقض الحجة: يغير اسمها. يسمي النبوة سحراً، والإصلاح فتنة، والحرية فوضى، والثبات تشدداً؛ لأن تشويه الاسم أسهل من مواجهة المعنى.

ثم قالوا:

(وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ)

جعلوا غياب الشيء عن تراثهم دليلاً على بطلانه. وكأن آباءهم أحاطوا بالحق كله، أو كأن القدم يمنح الخطأ قداسة.

إن التقليد حين يفصل عن البرهان يتحول إلى سجن للأجيال. لا يعود الإنسان يسأل: أهذا حق؟ بل يسأل: أهذا مألوف؟ فإن لم يألفه رفضه، ولو جاءه من عند الله.

أما موسى فلم يدخل في ضجيج الاتهام، ولم يحاول أن ينتزع الاعتراف بقوة الجدل، بل رد الأمر إلى العليم بحقائق النفوس:

(وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

كان فرعون يملك اللحظة الظاهرة، لكن موسى يملك اليقين بالعاقبة. والطغاة يجيدون صناعة المشهد الحاضر: المنابر لهم، والجنود حولهم، والأصوات تردد قولهم. أما الأنبياء فينظرون أبعد؛ يعلمون أن الحكم الحقيقي لا تصدره ضجة الساعة، وإنما تكشفه عاقبة الدار.

قد يربح الظالم جولةً ويحتل صفحةً كاملةً من التاريخ، لكنه لا يفلح. فالفلاح ليس أن تخيف الناس زمناً، ولا أن تحكم إغلاق السجون، ولا أن تجعل الأرض تردد اسمك؛ الفلاح أن تنجو حين تتكشف الموازين، وذلك ما لا يكون للظالمين.

لقد بدأت المواجهة، لكن نتيجتها كانت مستقرة في قلب موسى قبل أن تظهر في العالم:

الطاغية يملك القصر، والنبي يملك العاقبة؛ وما أقصر عمر القصور حين تواجه وعد الله.

المحطة التاسعة والعشرون

فرعون حين لم يجد حجةً فبني صرحاً

وقف فرعون أمام دعوة موسى لا يملك ردّاً على برهانها، لكنه يملك من أدوات السلطة ما يصنع به وهماً عاماً:

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

لم يقل: لا إله غيري؛ بل قال: (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ)، فجعل علمه المحدود ميزاناً للوجود كله، وكأن ما لا يعرفه لا يكون، وما لا يأذن به لا يحق للناس أن يؤمنوا به.

هكذا يبلغ الاستبداد ذروته: لا يكفي الطاغية بأن يتحكم في أجساد الناس، بل يريد أن يحتكر لهم المعرفة، ويحدد ما يجوز أن يدخل عقولهم، ومن يستحق أن يعبدوه، وأي حقيقة يحق لها أن توجد.

إنه لا يقول: فكروا، بل يقول: سأفكر نيابةً عنكم. ولا يقول: انظروا في البرهان، بل يقول: ما علمت لكم. وحين يصير وعي الأمة تابعاً لوعي الحاكم، يكون الاستبداد قد

بلغ أعمق طبقاته؛ لأن السلاسل التي تُوضع في العقول أشد من السلاسل التي تُوضع في الأيدي.

ثم التفت إلى هامان:

(فَأَوْقَدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى)

لم يكن فرعون يبحث حقاً عن إله موسى؛ فالذي يطلب الحقيقة لا يبدأ بالاستهزاء بها. وإنما أراد أن يحول أعظم قضية في الوجود إلى مشهد مسرحي ساحر، يشغل به الناس عن البرهان الذي جاءهم.

ابن لي صرحاً شاهقاً، كأن رب العالمين جسمٌ محصور في جهة يتساق إليها الطاغية بنيانه! لقد رد فرعون على التوحيد باستعراض هندسي، وعلى الحجّة بمشروع ضخم، وعلى سؤال الوجود بمشهد دعائي.

وهذه حيلة قديمة للباطل: حين يعجز عن هدم الفكرة، يصنع ضجيجاً أكبر منها. يبني، ويحشد، ويستعرض، ويملأ العيون بصورة قوته، لئلا يتسع في القلب موضعٌ لسؤال الحقيقة.

ثم قال:

(وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

يتكلم بلسان المتثبت، وهو أبعد الناس عن طلب التثبت. يلبس ظنه ثوب العلم، ويطلب من الأمة أن تجعل ظنه عقيدة. وهكذا تتحول أوهام المستبد، حين تملك المناير والجنود، إلى حقائق مفروضة في المجال العام.

لكن الصرح مهما ارتفع لا يقرب صاحبه من السماء، إذا كان قلبه غارقاً في طين الكبر.

المحطة الثلاثون

الاستكبار الذي نسي الرجوع

(وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ)

الاستكبار ليس مجرد إحساس بالعظمة، بل موقف وجودي يجعل الإنسان يرفض أن يكون عبداً لله، ويأنف أن يخضع للحق، ويرى نفسه أكبر من أن يُراجع أو يُحاسب.

وقد استكبر فرعون وجنوده (بِغَيْرِ الْحَقِّ)، لأن الكبر كله لا يقوم على حق. فالإنسان مخلوق من ضعف، محمول بين بدايتين لا يملكهما: لم يختَر مَجِيئُهُ إلى الدنيا، ولا يملك منع خروجه منها. فكيف يتعالى من دخل الحياة عاجزاً وسيغادرها مكرهاً؟

ثم تكشف الآية الجذر الباطني لطغيانه:

(وَوَظَنُوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ)

هنا موطن الداء. إن فرعون لم يطغَ لأنه يملك القوة فقط، بل لأنه أسقط من وعيه مشهد الرجوع إلى الله. فإذا غابت الآخرة عن القلب، تمددت الشهوة بلا حد، وصار الإنسان مستعداً أن يفعل كل شيء؛ لأنه لا يرى بعد اللحظة محكمة، ولا بعد القبر سؤالاً.

إن الإيمان بالرجوع إلى الله ليس فكرةً مؤجلةً إلى نهاية العمر، بل قوة أخلاقية تضبط الحاضر كله. مَنْ أيقن أنه راجعٌ إلى الله لم ير السلطة ملكاً خالصاً، ولا المال حقاً مطلقاً، ولا الضعفاء بلا نصير. إنه يرى وراء كل حركة موعداً، ووراء كل مظلمة ميزاناً.

أما فرعون فظن أنه خاتمة الحكم على نفسه، وأن لا صوت فوق صوته، ولا قضاء بعد قضائه. ومن هنا استباح أن يقول للناس: أنا ربكم الأعلى؛ فالذي ينسى وقوفه عبداً بين يدي الله يحاول أن يقف رباً فوق عباده.

المحطة الحادية والثلاثون

القصر الذي انتهى في الماء

(فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ)

ما أسرع الانتقال من الاستكبار إلى النبذ!

كان فرعون يقول: ابنا لي صرحاً، فإذا به وجنوده يلقون في الماء إلقاء الشيء الذي لا وزن له. كان يصدر الأوامر فتتحرك البلاد، ثم جاء أمر الله فتتحرك البحر نحوه. كان يظن أن الأرض كلها تحت قبضته، فإذا بقطرة من ملك الله تبتلع سلطانه.

واليم الذي حمل موسى رضيعاً هو نفسه الذي حمل فرعون غريقاً. الماء واحد، لكن الأمر الإلهي مختلف: حفظ لهذا، وهلاكٌ لذاك.

حين كان موسى أضعف ما يكون، جعله الله فوق الماء آمناً. وحين كان فرعون في ذروة قوته، جعله الله تحت الماء عاجزاً. وكأن السورة تقول: ليست النجاة في قوة الراكب، ولا الهلاك في قوة الموج؛ إنما الأمر كله لمن يقول للشيء: احمل، أو ابتلع.

يا لها من مقابلة تقلب موازين الظاهر: الطفل في التابوت يخرج من اليم إلى القصر، وصاحب القصر يخرج منه إلى اليم. موسى بلا جيش ينجو، وفرعون بجنوده يغرق. المستضعف الذي أريد له الفناء صار قائد الخلاص، والمستكبر الذي ظن نفسه خالداً صار عبدة.

ثم يقول الله:

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

لا تنظر إلى لحظة علوهم وحدها. لا تحكم على القصة والطاغية في قصره، والمظلوم على ضفة النهر. انتظر حتى تصل الأحداث إلى عاقبتها؛ فالحقيقة لا تكتمل في منتصف الطريق.

إن الظلم بارعٌ في صناعة البدايات المهيبة، لكنه عاجز عن حماية النهايات. قد يتأقن في موكبه، ويرفع صروحه، ويملأ الساحات بجنوده؛ إلا أنه يحمل في داخله بذرة فثائه. لأن الظلم لا يصادم الإنسان وحده، بل يصادم الميزان الذي أقام الله عليه الوجود.

المحطة الثانية والثلاثون

أُمَّةٌ إِلَى النَّارِ

(وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ)

كما أن للهدى أئمة، فللضلال أئمة. وليس كل من تقدم الناس جديراً بأن يُتبع، فقد يكون تقدمه سيراً بهم نحو الهاوية.

كان فرعون إماماً، لكن إمامته لم تكن شرفاً؛ كانت مسؤولية مضاعفة في الإضلال. دعا قومه إلى النار قبل أن يصلوا إليها؛ دعاهم إليها حين علمهم عبادة القوة، وحين زين لهم الاستعباد، وحين جعل طاعته فوق طاعة الحق.

فالإنسان قد يدعو إلى النار دون أن ينطق باسمها. يدعو إليها حين يجعل الباطل طبيعياً، والظلم ضرورة، والفساد مهارة، والخضوع للطاغية فضيلة. وكل من صنع للشر طريقاً في النفوس، ثم سار الناس فيه، فقد أخذ حظه من هذه الإمامة المظلمة.

(وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ)

كانوا في الدنيا جنوداً ينصر بعضهم بعضاً على الضعفاء؛ فإذا جاء اليوم الذي يحتاجون فيه إلى النصر تفرقت عنهم القوى. فالتحالفات المبنية على الباطل تنتهي عند أبواب الآخرة؛ لا يحمل تابع عن متبوعه، ولا يدفع جندي عن قائده، ولا يملك فرعون لمن أطاعه نجاة.

(وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ)

طلبوا الهيبة فخصدوا اللعنة، وأرادوا أن تُخلدَ أسماءهم بالعظمة نُخلدت بالقبح. إن الطغاة يحرصون على صورههم في الميادين، لكن التاريخ يمزق الإطار، ويترك الحقيقة عارية.

ليست الخسارة أن يسقط الصرح، بل أن يسقط الاسم في ذاكرة الأخلاق؛ أن يصبح وجود الإنسان مثلاً يُحذر منه، وتحول حياته كلها إلى شاهد على قبح ما اختار.

المحطة الثالثة والثلاثون

الكتاب بعد هلاك القرون

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

لم تكن نجاة بني إسرائيل نهاية القصة؛ فإخراج الأجساد من الاستعباد لا يكفي ما لم تُخرج العقول من ظلمات الجهل، والنفوس من عبودية الهوى. لذلك جاء الكتاب.

وصفه الله بأنه (بَصَائِر)؛ لأن الإنسان قد يملك عينين ولا يرى حقيقة الطريق. البصيرة ليست كثرة المعلومات، بل النور الذي يفرق بين ما يلمع وما ينفع، وبين القوة والحق، وبين النجاة المؤقتة والفلاح.

وهو (هُدًى)، لأن الحرية بلا وجهة قد تتحول إلى تيه. و(رَحْمَةً)، لأن أوامر الله ليست قيوداً على إنسانية الإنسان، بل حماية لها من أن تفترسها شهواتها أو يستعبدوها بشر مثلها.

لقد أهلك الله فرعون، لكن إزالة الطاغية لا تضمن وحدها زوال الطغيان من النفوس. فقد يسقط فرعون ويبقى شيء من منطقته في قلوب من كانوا ضحاياه. وهنا يأتي الكتاب ليعيد بناء الإنسان: يحرره من فرعون الخارج، ومن فرعون الكامن في ذاته.

فالثورات قد تغير الحاكم، أما الوحي فيغير الميزان الذي يصنع الحكام والمحكومين.

المحطة الرابعة والثلاثون

لست بجانب الغربي

بعد أن اكتمل عرض قصة موسى في مشاهدها الكبرى، يلتفت الخطاب إلى النبي محمد ﷺ:

(وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ)

لم تكن يا محمد عند الطور، ولم تشهد لحظة تكليف موسى، ولم تقف بين الذين رأوا العصا واليد، فمن أين جاءك هذا الخبر بهذه الدقة والصدق؟

إن القصة نفسها تصبح برهاناً على الوحي. فالنبي ﷺ لا يروي ذاكرةً بشرية تلقاها من شهود الحادثة، بل يتلقى خبرها من أحاط علمه بالماضي والحاضر والمستقبل.

(وَلَكَّا أَشْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ)

مرت أجيال، وطال الزمن، وخفت صوت الحقيقة في ذاكرة البشر، واختلطت الأخبار، وتراكم عليها النسيان والتحريف؛ فجاء القرآن لا ليوقط قصةً تاريخيةً فحسب، بل ليعيد المعنى الذي ضاع تحت غبار القرون.

فالزمن قد يحفظ الأسماء ويفقد الإنسان العبرة. يعرف الناس موسى وفرعون، ثم يعيدون إنتاج فرعون في حياتهم، ويقفون من رسالات الحق موقف ملئه نفسه. ولهذا لا يكفي أن تُحكى القصة؛ لا بد أن تُتلقى كمرآة.

ثم يقول سبحانه:

(وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ)

لم يعيش النبي ﷺ في مدين، ولم يجلس إلى أهلها يسألهم عن موسى والمرأتين والشيخ. لكنه يتلو أحداثها كأنه يراها؛ لأن الذي أرسل موسى هو الذي أرسل محمدًا، ومصدر الرسالتين واحد.

(وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ)

الوحي رحمة. ليس مجرد أخبار صحيحة عن الماضي، بل يد من النور تمتد إلى الإنسان في حيرته. رحمة بالنبي ﷺ، تثبت قلبه وهو يواجه تكذيب قومه؛ ورحمة بقريش، لئلا تقول إنها لم يأتها نذير؛ ورحمة بكل قلب يقرأ القصة بعد قرون، فيجد خوفه الصغير موضوعاً داخل معنى العناية الكبير.

(لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

إن الإنذار نفسه رحمة؛ لأن الرحمة ليست أن يُترك الإنسان سائراً إلى الهاوية بلا صوت يوقظه. وقد تكون الكلمة التي تهز راحة الغافل أرحم به من الصمت الذي يتركه مطمئناً إلى هلاكه.

المحطة الخامسة والثلاثون

لثَلَا يَقُولُوا: رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا
فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

إن الله يقيم الحجة على عباده رحمةً وعدلاً. لا يؤاخذهم قبل البيان، ولا يغلق عنهم أبواب الرجوع، ولا يترك لهم عذراً صادقاً يحتجون به.

لكن النفس البشرية عجبية؛ إذا لم يأتها الرسول قالت: لولا أرسلت إلينا! فإذا جاءها الرسول بحثت عن سبب لرفضه. إنها لا تعجز عن الأعذار، وإنما تعجز كثيراً عن الصدق مع نفسها.

(فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى)

كانوا قد طلبوا البيان، فلما جاءهم لم يسألوا: أحق هو؟ بل قالوا: لماذا لم يأت في الصورة التي نريدها؟

وهذه من حيل النفس في الهرب من الهداية: تجعل قبول الحق مشروطاً بتفاصيل تختارها هي. تريد من الله أن يهديها وفق ذوقها، وأن يرسل إليها البرهان في الهيئة التي

تقترحها، وأن ينزل الوحي على من تختاره. فإذا جاء الحق من غير الباب الذي رسمته رفضته، لا لضعفه، بل لأنه لم يخضع لشروطها.

ثم يواجههم القرآن بتناقضهم:

(أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ)

لقد جعلوا معجزة موسى حجةً يطالبون بمثلها، مع أن أمثالهم كفروا بها حين جاءت. فالمشكلة ليست في نوع المعجزة، وإنما في قلب قرر الرفض ثم صار ينتقل من تعلقة إلى تعلقة.

وقالوا عن الكافرين:

(سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونِ)

حين تتفق رسالات السماء في أصولها، يرى المؤمن في اتفاقها شاهداً على وحدة المصدر، ويرى الجاحد فيها تواطؤاً. القلب هو الذي يحدد كيف يقرأ التشابه: أهو تظاهر السحر، أم تصديق النور بعضه لبعض؟

المحطة السادسة والثلاثون

هاتوا كتاباً أهدى منهما

(قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

إنها قمة التجرد للحق: إن كان عندكم كتاب من الله أهدى، فهاتوه أتبعه.

ليس المقصود الدفاع عن الذات، ولا الانتصار للاسم، ولا حماية موقع شخصي؛ المقصود هو الهدى. وصاحب الحق لا يخشى المقارنة الصادقة، لأن ولاءه ليس لنفسه، بل لما أنزل الله.

ثم يأتي التشخيص الحاسم:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

إذا سقط البرهان المقابل، وبقي الرفض، لم تعد المشكلة فكرية؛ إنها هوى يرتدي ثياب السؤال. فليس كل جدال بحثاً عن الحقيقة، ولا كل اعتراض شبهة بريئة. قد يطيل الإنسان المناقشة لأنه لا يريد أن يقول الجملة الأصعب: أنا أعرف، لكنني لا أريد أن أتبع.

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

الهوى ليس مجرد شهوة عابرة؛ إنه أن يجعل الإنسان رغبته مصدراً للحكم، فيقبل ما يخدمه ويفرض ما يكلفه، ثم يبحث بعد ذلك عن لغة عقلية تزين قراره.

وما أكثر ما يبدأ الضلال من عكس الترتيب: بدل أن يسأل الإنسان الوحي ليعرف ماذا يريد الله، يقرر ما يريد هو، ثم يفنش في الكلام عما يوافقه.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

لقد ظلموا الحقيقة حين رفضوها بعد وضوحها، وظلموا أنفسهم حين حرموها نورها. فالهداية ليست معلومة تلقى في العقل وحده، بل استجابة أخلاقية تتطلب تواضعاً وانقياداً. ومن أبي أن ينبغي للحق لا تنقصه دائماً حجة جديدة؛ قد ينقصه قلبٌ جديد.

المحطة السابعة والثلاثون

وصلنا لهم القول

(وَلَقَدْ وَصَلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

لم ينزل القرآن كلمات متفرقة بلا بناء، بل وصل الله لهم القول: آية بعد آية، وحجة إثر حجة، وقصة تتصل بقصة، حتى يلتئم أمامهم طريق الهداية.

وكان الوحي حبلٌ ممتد من السماء إلى القلب؛ كل آية عقدة نجاة، وكل قصة موضع إمساك، وكل موعظة تعيد الإنسان من شروده.

ووصل القول يعني كذلك أن الله لم يتركهم لإشارة غامضة، بل تابع البيان وكره ونوعه. حدثهم مرةً بالبرهان، ومرةً بالقصة، ومرةً بالمثل، ومرةً بمشهد القيامة. فالرحمة لا تملّ من طرق أبواب القلب، وإن ملّ القلب من سماعها.

لكن التذكر لا يحدث بكثرة الأصوات وحدها؛ يحتاج الإنسان أن يصمت في داخله، وأن يسمح للكلمة أن تبلغ موضعها. فقد يسمع الوحي كل يوم، ويبقى بعيداً عنه؛ لأن بين الأذن والقلب طريقاً قطعه الهوى.

ومع ذلك يظل القرآن يصل القول، جيلاً بعد جيل، حتى يجد بين القلوب قلباً يعرف الصوت الذي كان ينتظره.

ومن بين هؤلاء سيخرج رجال من أهل الكتاب إذا سمعوا القرآن قالوا:

هذا هو النور الذي عرفنا ملامحه من قبل؛ إنه الحق من ربنا، وكنا قبل تلاوته مستسلمين لله.

المحطة الثامنة والثلاثون

الذين عرفوا النور حين سمعوه

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ)

لم يكن أهل الكتاب سواءً؛ ففهم قلوب بقيت أمينة لما عرفت، لم تجعل انتماءها حجاباً بينها وبين الحق الجديد. وحين جاء القرآن، لم ترفيه منافساً لكتاب الله السابق، بل رأت النبع نفسه يمتد في مجرى جديد.

(وَإِذَا يَتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ)

لم يقولوا: سنؤمن به إذا وافق هوانا، أو إذا جاء على يد رجل من قومنا. إنما عرفوا الحق بنوره، لا بهوية من يحمله. فالنفوس الصادقة لا تسأل أولاً: من قال؟ وإنما تسأل: أهذا من عند الله؟

لقد سبق في قلوبهم إسلامٌ لله، فلما جاءهم القرآن وجد موضعه مهيأ. فمن سلّم قلبه لله قبل أن يعرف تفاصيل الطريق، قاده الله إلى الحق حين يلقاه. أما من سلّمه للعصبية، فلن يرى في البرهان إلا تهديداً لموقعه.

إن الهداية الجديدة لا تبدأ دائماً في لحظة سماعها؛ قد يسبقها عمرٌ من الصدق، وطمأً لا يعرف صاحبه اسمه، ووفاءً لما بلغه من النور. ثم تأتي الآية فتلتقي بذلك الاستعداد القديم، فيشعر الإنسان أنه لم يسمع حقيقة غريبة، بل عثر على المعنى الذي كان قلبه يبحث عنه.

المحطة التاسعة والثلاثون

أجران للصبر على الطريقين

(أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا)

أجرٌ على ثباتهم على الحق الذي عرفوه أولاً، وأجرٌ على اتباعهم الحق حين جاءهم في رسالته الخاتمة. فقد كان الانتقال مكلفاً؛ سيواجهون قومهم، ويغادرون مألوفاتهم، ويتهمون بأنهم خذلوا تاريخهم.

لكنهم صبروا؛ لأنهم لم يعبدوا الأسماء، بل عبدوا الله. والحق عندهم لا يصبح باطلاً لأنه جاء من خارج جماعتهم، ولا الباطل حقاً لأنه ورثوه عن آبائهم.

ثم يصف القرآن أخلاقهم:

(وَيَذَرُوكَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ)

لا يقابلون كل إساءة بمثليها، بل يدفعونها بالحسنة؛ لأنهم لا يسمحون للآخر أن يحدد أخلاقهم. المسيء يريد أن يجرحهم إلى أرضه، لكنهم يبقون في مقامهم، فلا يتحولون إلى نسخة من آذاهم.

وليس دفع السيئة بالحسنة ضعفاً، بل سيادةً على النفس. الضعيف هو الذي تُدار أفعاله من الخارج؛ يُستفز فيغضب، ويُهان فيظلم، ويؤذى فيفقد ميزانه. أما القوي فهو من يملك رده، ويختار ما يرضي الله لا ما تمليه لحظة الغضب.

(وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

يعرفون أن المال لم ينشأ من ذواتهم، وإنما هو مما رزقهم الله؛ ولذلك لا تحكمه أنانيتهم. من رأى المال رزقاً جرى شيء منه إلى الناس، ومن رآه صناعةً خالصةً لنفسه أمسكه وقال: إنما أوتيته على علم عندي.

ثم يقول:

(وَإِذَا سِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ)

الإعراض هنا رفعة لا عجز. فليس كل كلام يستحق جواباً، ولا كل معركة يربح الإنسان بدخولها. بعض الكلمات لا تُهزم بالحجة، وإنما تُهزم بحرماتها من اهتمامك.

(وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ)

ليس السلام هنا اعترافاً بباطل الجهل، بل إعلان انفصال أخلاقي عنه: لن نزل إلى لغتكم، ولن نسمح لضجيجكم أن يسرقنا من رسالتنا.

وما أكرم القلب حين يملك أن يغادر الجدل دون حقد، وأن يقول للجاهل سلاماً لا خوفاً منه، بل صيانةً لنفسه عن أن تصبح مثله.

المحطة الأربعون

إنك لا تهدي من أحببت

بعد الحديث عن قلوب سمعت فأمنت، تأتي الآية التي تضع حداً لقدرة البشر جميعاً:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

ما أثقل هذه الحقيقة على قلب المحب!

قد تبلغ في البيان غايته، وتخلص في الدعوة، وتسكب من روحك في نصح إنسان تحبه، ثم يبقى قلبه مغلقاً. ليس لأن كلماتك ناقصة بالضرورة، بل لأن الهداية باباً لا يملك مفتاحه إلا الله.

إن النبي ﷺ، وهو أحب الخلق إلى الله، لا يملك أن يخلق الإيمان في قلب من أحب. يبين الطريق، ويدعو إليه، ويرفق بصاحبه، ويبدل وسعته؛ لكن النور الذي يجعل القلب يرى هبةً من الله.

وهذه الآية تحرر الداعية من وهم السيطرة على النتائج. عليه صدق البلاغ، لا خلق الاستجابة. فلا ييأس إذا تأخر أثر كلمته، ولا يغتر إذا استجاب الناس له؛ لأنه ليس مالك القلوب، بل رسول إلى أبوابها.

وفيهما أيضاً عزاءٌ مرير جميل: إن عجزت عن هداية من تحب، فلا تحول حبك له إلى اعتراض على الله، ولا تتحمل نفسك ما لم يجعل الله إليك. ابقَ رحيماً، وادعُ، وبلغ؛ ثم سلم السرائر إلى من يعلمها.

(وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

فالهداية ليست محاباة، ولا تأتي عبثاً؛ الله أعلم بمن صدق في طلبها، ومن يفتح قلبه لها، ومن يخفي وراء أسئلته رغبةً في الفرار.

المحطة الحادية والأربعون

نخشى أن نتخطف من أرضنا

قال المشركون:

(إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُخْطَفُ مِنْ أَرْضِنَا)

لم يقولوا: إن ما جئت به باطل؛ بل سموه (الهُدَى). أدركوا صدقه، لكنهم خافوا كلفته. كأنهم يقولون: نعرف أنه هدى، إلا أن مصالحنا لا تحتل اتباعه.

وهنا ينكشف نوع من الكفر لا ينشأ عن غموض الحقيقة، بل عن الخوف على الامتيازات. فقد يخشى الإنسان أن يخسر مكانته أو تجارته أو تحالفاته إذا انحاز إلى الحق، فيختار أمناً مؤقتاً ويترك الهدى.

وهذا من أخطر الامتحانات: أن يقر القلب بصحة الطريق، ثم تراجع القدم لأن الحسابات الأرضية تبدو أكثر إلحاحاً. ينسى الإنسان أن الأرض التي يخشى فقدها مملوكة لله، وأن الأمان الذي يحافظ عليه بمعصيته قد يُنتزع منه من حيث ظن أنه يحقيه.

فجاءهم الجواب:

(أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا)

من الذي منحكم الأمن قبل الرسالة؟ ومن الذي ساق الثمرات إلى وادٍ غير ذي زرع؟
أَتَخَافُونَ أَن يَظْيِعَكُمْ اتِّبَاعُ مَن رَزَقَكُم وَحَمَاكُم، وَتَطْمَئِنُّونَ إِلَىٰ شَرِّكَ لَا يَمْلِكُ لَكُم رِزْقًا
وَلَا أَمَانًا؟

لقد قلب الخوف ميزانهم: صاروا يظنون أن الطاعة تهدد الرزق، وأن المعصية تحفظه.
وهذه من تلييسات النفس المتكررة؛ يترك الإنسان أمر الله لئلا يخسر شيئاً، وينسى أن
الشيء نفسه لا يبقى إلا بأمر الله.

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

لا يعلمون مصدر الأمن الحقيقي. يرون النظام الظاهر، والطرق، والتجارة،
والتحالفات؛ ولا يرون اليد التي تحفظ هذا كله من فوقهم. فإذا غاب المنعم عن رؤية
النعمة، خاف الإنسان من طاعته، وتعلق بالأسباب التي لا تقوم إلا به.

المحطة الثانية والأربعون

القرى التي بطرت معيشتها

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا)

لم يقل: كفرت فحسب، بل (بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا). والبطر أن تتحول النعمة من باب للشكر إلى مادة للغرور، وأن يرى الإنسان الرفاه حقاً ذاتياً لا فضلاً، فيستهين بمن أنعم ويطغى بما أُعطي.

فالنعمة لا تفسد بذاتها، لكن تفسير القلب لها هو الذي يرفع أو يهوي. إذا قال: هذا من فضل ربي، صارت النعمة طريقاً إلى الله. وإذا قال: هذا لي، وأنا مستحقه بذاتي، صارت جداراً يحجبه عنه.

(فَتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا)

كانت البيوت عامرة بالأصوات، تتسع للولائم، ويظن أهلها أن الأبواب ستفتح لهم كل صباح. ثم صارت مساكن صامتة، يمر بها العابر ولا يسمع إلا الريح.

كم تختصر الأطلال غرور الإنسان! كل بيت يملأه أهله اليوم كأنهم خالدون، سيأتي عليه زمن يذكركهم فيه الجدار ولا يجدهم. وما أشد فقر العمارة إذا خرجت منها الروح، وما أسرع أن يتحول موضع الزهو إلى شاهد على الفناء!

(وَكَمْ نَحْنُ الْوَارِثِينَ)

يدّعي الإنسان الملك فترةً، ثم يرحل ويبقى الملك لله. نحن لا نملك الأشياء ملكاً نهائياً، تمر بين أيدينا لتختبرنا، ثم تنزع كما نُزعت من قبلنا.

فالوارث الحق هو الله، وكل ما في أيدينا وديعة. ومن وعى أنه مستخلف لا مالك مطلق رُقَّ قلبه، وعدل في تصرفه، ولم يجعل النعمة حجةً على المنعم.

المحطة الثالثة والأربعون

لا تهلك القرى حتى تبلغها الحجة

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا)

إن عدل الله يسبق عقابه. يبعث الرسول، وقيم الحجة، ويمنح الزمن، ويفتح أبواب الرجوع. فلا يأخذ قوماً على غفلة من البيان، ولا يهلكهم لأن الحقيقة خفيت عنهم دون اختيار.

ووصفت مهمة الرسول هنا بأنها تلاوة الآيات؛ فالكلمة هي أول مواجهة للطغيان. قبل أن تسقط المدن في الخارج، تنزل الآيات لتهدم أوهامها في الداخل. ومن رحمة الله أنه يعرض على المجتمع فرصة أن يغير نفسه قبل أن تأتيه السنن التي لا تحابي أحداً.

(وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

لم يكن عمران القرى هو سبب بقائها، ولا ضعفها المادي هو سبب سقوطها؛ الميزان أخلاقي. حين يتحول الظلم من خطأ عابر إلى بنية عامة، ويصير القانون حارساً له، والمال ممولاً، والثقافة مبررة، والصمت شريكاً، تكون القرية قد حفرت في أساسها شقوق فناءها.

إن الله لا يظلم القرى؛ القرى تظلم نفسها حين تجعل الحياة ممكنة للباطل ومستحيلة على المظلوم.

المحطة الرابعة والأربعون

متاع الحياة وزينتها

(وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَتَّاعُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا)

المتاع ما يُنتفع به زماناً ثم ينقضي، والزينة ما يجمل الظاهر دون أن يضمن بقاء الجوهر. وكل ما تتقاتل عليه في الدنيا داخل في هذا الوصف: مال، ومنصب، وشهرة، وقصور، وأسماء.

ليس القرآن يدعونا إلى كراهية الجمال أو ترك الطيبات، بل يضعها في حجمها الصحيح. الخطر ليس أن تكون الزينة في يدك؛ الخطر أن تصبح في قلبك، وأن تعامل العابر كأنه أبدي، والوسيلة كأنها غاية.

(وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

خيرٌ في جوهره، وأبقى في مدته. وما أشد خسارة من باع الخير بالبريق، والباقي بالعاجل، واليقين بالوهم!

ثم يضع القرآن صورتين متقابلتين:

(أَقْنِ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

الأول يعيش على وعد وسيلقاه، والثاني يعيش في متاع ثم يُنتزع منه ويُحضر للحساب. قد يبدو صاحب المتاع أكثر حظاً في اللحظة، لكن المقارنة لا تصح إلا عند اكتمال الزمن.

هذا جوهر البصيرة القرآنية: ألا تقارن بين المؤمن والمترف في منتصف القصة. انظر إلى نقطة الوصول. فكم من محرومٍ في الظاهر يمضي إلى وعد حسن، وكم من متمتع يضحك قليلاً وهو يُقَاد إلى موقف لا يستطيع الفرار منه.

المحطة الخامسة والأربعون

أين شركائي الذين كنتم تزعمون؟

تتفتح فجأة ساحة القيامة:

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)

ليس السؤال طلباً للمعرفة، تعالى الله عن ذلك، بل كشفٌ لفراغ الدعوى. أين الذين علقتم بهم الخوف والرجاء؟ أين القوى التي حسبتم أنها تمنعكم؟ أين من قدمتم رضاهم على رضا الله؟

تسقط الأسماء كلها، ويبقى الإنسان أمام الحقيقة التي حاول تأجيلها. فما أكثر الشركاء الذين يصنعهم البشر من غير أصنام الحجر: زعيم يطاع في معصية الله، ومال

يُتوهم أنه يمنح الأمان، وجمهور تُطلب منزلته ولو بسخط الحق، وهوى يُجعل مرجعاً
للحلال والحرام.

ثم يتكلم رؤوس الضلال:

(قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا هُمْ كَمَا غَوَيْنَا)

يعترفون بالإغواء، لكنهم يضيفون أنهم أضلوهم من جنس ضلالهم؛ لم يخلقوا فيهم
إرادة الشر، بل دعوهم فاستجابوا لأن في قلوبهم استعداداً للغواية.

(تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ)

يا لوحشة التابع حين يتبرأ منه المتبوع! كان في الدنيا يبيع عقله دفاعاً عنه، ويخاصم
لأجله، ويبرر جرائمه، فإذا جاء اليوم الحق قال له من اتبعه: لا شأن لي بك.

وهذه نهاية كل رابطة تقوم على الباطل: مودة مؤقتة تنقلب إلى تبرؤ، وتحالف ينتهي
إلى اتهام، وطاعة عمياء لا يجد صاحبها من يحمل عنه تبعتها.

المحطة السادسة والأربعون

فدعوهم فلم يستجيبوا لهم

(وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ)

ينادون من كانوا ينادونهم في الدنيا، فلا يسمعون جواباً. لقد عاشوا على وهم الحضور، فإذا بهم يكتشفون في اللحظة الأشد حاجةً أن الشركاء غياب.

(وَرَأَوْا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ)

كم تحمل (لو) هنا من حسرة! كلمة قصيرة تفتح أمامهم حياةً كاملةً كان يمكن أن تكون غير ما كانت. لو أنهم اهتدوا حين كان باب الهداية مفتوحاً، لو أنهم أنصتوا قبل أن تصير الحقيقة عياناً لا ينفع معه التصديق.

ثم يأتي سؤال الرسالة:

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ)

لم يسألهم: ماذا سمعتم؟ بل: ماذا أجبتهم؟ لأن الوحي لا يأتي ليضيف معلومة إلى الذاكرة، وإنما لينتظر موقفاً من الإنسان. المعرفة التي لا تتحول إلى استجابة تصبح حجة على صاحبها.

(فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ)

كانت لديهم في الدنيا أجوبة لكل شيء؛ يجادلون، ويعترضون، ويقترحون الآيات. فإذا جاء يوم السؤال الحقيقي عميت عليهم الأنباء، وانقطعت الحيل، ولم يعد أحد يسأل صاحبه طلباً للنجاة؛ لأن الجميع غارق في عجزه.

لكن القرآن لا يغلق المشهد على اليأس:

(فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ)

ما دام الإنسان في الدنيا فباب التحول مفتوح: توبة نحو جهة الطريق القديمة، وإيمان يعيد بناء القلب، وعمل صالح يصدق ما استقر فيه.

لم يقل: من لم يخطئ، بل قال: (مَنْ تَابَ). فطريق الفلاح لا يختص بمن كانت صحائفهم بلا عثرة؛ إنه مفتوح لمن عرف خطأه وعاد. وهذه رحمة تضيء بعد مشهد القيامة: تستطيع الآن، قبل أن تعمى الأنباء، أن تغير إجابتك وحياتك ومصيرك.

إن السورة التي عرضت توبة موسى بعد خطئه تعلن هنا أن باب موسى مفتوح لكل تائب: اعترف، وارجع، وآمن، وحول الندم إلى عمل؛ فقد يخرج الله من موضع العثرة طريقاً كاملاً إلى الفلاح.

المحطة السابعة والأربعون

وربك يخلق ما يشاء ويختار

بعد أن كشف الله مصير من اختاروا الشرك والهوى، يرد الأمر كله إلى الاختيار الأعلى:

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ)

الله يخلق، ثم يختار من خلقه ما يشاء لما يشاء. يختار رسولاً من بين الناس، وزماناً لرسالته، ومكاناً لنزولها، وقلباً لحمل أمانتها. وليس للمخلوق أن يفرض على الله من يصطفي، ولا أن يردّ حكمته لأن الاختيار لم يوافق هواه.

لقد اعترض المشركون على أن ينزل القرآن على محمد ﷺ، كما اعترضت أمم قبلهم على رسلها؛ لأنهم ظنوا أن مقاييس المال والجاه التي يتفاضل بها الناس في أسواقهم هي نفسها مقاييس الاصطفاء عند الله.

لكن الله لم يختَر موسى لأنه تربى في القصر، ولا محمداً ﷺ لأنه كان من أغنى قريش؛ بل يختار بقلبٍ يعلمه، وأمانةٍ يراها، وحكمةٍ لا تحيط بها الأبصار.

(سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

تنزّه الله أن يشاركه أحد في الخلق أو الاختيار، أو أن يكون حكمه تابعاً لأهواء عباده. فالشرك ليس أن تُعبد الأصنام وحدها؛ من معانيه أن يزاحم الإنسان حكمة الله باعتراض قلبه، كأنه أعلم بمن يستحق الرسالة، أو بما ينبغي أن يقع.

ثم يقول سبحانه:

(وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ)

يعلم الاعتراض الذي يستتر خلف السؤال، والحسد الذي يتزيّأ بلباس النقد، والكبر الذي يتحدث بلسان البحث. وقد يعلن الإنسان سبباً لرفض الحق، ويخفي في صدره سبباً آخر لا يجروء أن يواجه به نفسه.

إن الله لا يحكم على ظاهر العبارة وحده، بل على الجذر الذي أنبتّها. فلا تنفع فصاحة التبرير إذا كان القلب يعرف أنه يهرب من الحق.

المحطة الثامنة والأربعون

له الحكم وإليه الرجوع

(وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ)

له الحمد في الدنيا حين تنزل النعمة ونفهم وجهها، وله الحمد حين تأتي المقادير مستترة الحكمة. وله الحمد في الآخرة حين تنكشف الأسرار، ويرى أهل الإيمان أن كل طريق شاق ساقهم إلى رحمته.

فالحمد الكامل لا يتوقف على فهمنا الآتي. نحن نرى جزءاً صغيراً من القصة، ونحكم من خلاله، أما الله فيرى امتدادها كله. أم موسى رأت التابوت يبتعد فبكت، ولو رأت في اللحظة نفسها آخر المشهد لامتلاً قلبها حمداً. وموسى خرج من مصر خائفاً، ولو رأى النار التي تنتظره بعد السنين لعرف أن المنفى طريق الاصطفاء.

(وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

له الحكم تشريعاً وقدرًا وجزاءً. قد يصدر الطغاة أحكامهم، لكن أحكامهم تقع داخل ملكه، وتنتهي عند حكمه. حكم فرعون بقتل موسى، وحكم الله أن يكون موسى من المرسلين؛ فأأي الحكمين بقي؟

وإليه ترجعون؛ لا إلى القصر، ولا إلى الجمهور، ولا إلى الرواية التي كتبها المنتصر المؤقت. كل الخصومات تعود إلى قاضٍ لا يُخدع، وكل الحقوق ترفع إلى من لا ينسى، وكل الأقنعة تسقط في حضرته.

المحطة التاسعة والأربعون

لو جعل الله عليكم الليل سرمداً

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءٌ)

نعيش تعاقب الليل والنهار حتى يبهت العجب في نفوسنا. ننام مطمئنين إلى أن الصباح سيأتي، كأن النور موظفٌ في الكون لا يملك أن يتأخر. فيوقظنا القرآن بهذا السؤال: ماذا لو طال الليل ولم ينشق؟

من يستطيع أن يأتيكم بضياء؟ من يملك أن يأمر الفجر بالخروج من وراء الأفق؟ الحضارات كلها، بعلمها وآلاتها، تستطيع أن تصنع مصباحاً، لكنها لا تستطيع أن تصنع صباحاً.

(أَفَلَا تَسْمَعُونَ)

اسمعوا سؤال الوجود قبل أن تبتلعها العادة. فالكون يتلو عليكم كل يوم آية التوحيد، لكن الألفة تجعل الإنسان يمر بالمعجزة دون أن يرتجف.

ثم تأتي الصورة المقابلة:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ لَيْلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ)

كما أن الإنسان يحتاج النور ليعمل، يحتاج الظلمة ليسكن. ليست الحياة نهاراً متصلاً من الإنجاز، ولا حركة بلا انقطاع. إن الليل رحمة تستر التعب، وتردُّ الجسد إلى ضعفه الهادئ، وتمنح الروح مساحة تفصل فيها قليلاً عن صخب العالم.

(أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

في سؤال الليل قال: (أَفَلَا تَسْمَعُونَ)، وفي سؤال النهار قال: (أَفَلَا تُبْصِرُونَ). كأن السمع والبصر يُستفَران لقراءة هذه الآية الكونية المتكررة.

(وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

سكينةٌ وحركة، راحةٌ وسعي، خلوةٌ وانتشار. بهذا الإيقاع يبنى الله توازن الإنسان. فمن أراد الحياة كلها سعيًا احترق، ومن أرادها كلها سكونًا نحمد. الحكمة أن تعرف متى تمضي ومتى تأوي، وأن ترى في الحركتين فضل الله.

المحطة الخمسون

أين شركائي؟ سؤالٌ يتكرر لا قتلاع الوهم

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)

يتكرر السؤال لأن الشرك لم يكن عثرة صغيرة في حياتهم؛ كان وهماً مركزياً بنوا عليه المواقف والولاءات. لا بد أن يروا انهياره كاملاً.

(وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ)

في الدنيا كانت الدعاوى رخيصة؛ يكفي أن يرفع الإنسان صوته، أو يرث قولاً عن آباءه، أو تحميه سلطة. أما هنا فيقال: (هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ).

إن الحقيقة لا تثبت بالكثرة، ولا بطول الزمن، ولا بهيبة القائل. وما لم يقم عليه برهان ينهار حين تنقطع سطوة العادة.

(فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

عرفوا في النهاية، لكن المعرفة جاءت بعد انتهاء زمن الاختيار. ضل عنهم الاقتراء؛ اختفت القصص التي اختلقوها، والآلهة التي توهموها، والأعداء التي احتموا بها. وبقي الحق وحده؛ لأنه لم يكن محتاجاً إلى تصديقهم حتى يكون حقاً.

المحطة الحادية والخمسون

قارون: حين يخرج فرعون من صفوف المستضعفين

بعد قصة فرعون، كان يمكن للقارئ أن يتوهم أن الطغيان يأتي دائماً من خارج الجماعة المستضعفة؛ من ملك غريب يحتلها ويقهرها. فتأتي قصة قارون لتصحيح هذا الوهم:

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ)

كان من قوم موسى، من الجماعة التي ذقت الذبح والاستضعاف، لكنه لما ملك المال لم تمنعه ذاكرة الألم من أن يبغى. فقد يخرج الإنسان من صفوف المظلومين، ثم يحمل في داخله مشروع ظالم جديد.

ليس كل من عانى الظلم عادلاً بالضرورة. الألم قد يربي الرحمة، لكنه قد يتحول، إذا لم يهذه الإيمان، إلى شهوة تعويض؛ ينتظر صاحبه فرصة القوة ليفعل بالناس ما فعل به.

لهذا لم تقل الآية: كان من أعداء موسى، بل (مِنْ قَوْمِ مُوسَى). إن القرابة لا تحمي القلب من الفساد، والانتماء إلى جماعة الحق لا يجعل كل فرد فيها حقاً. قد يجاور الإنسان النبوة، ويسمع الآيات، ويحمل اسم الجماعة المؤمنة، ثم يعبد ماله من دون الله.

فرعون طغى بالسلطة، وقارون طغى بالثروة. الأول قال بلسان الملك: أنا ربكم الأعلى، والثاني سيقول بلسان المال: إنما أوتيته على علم عندي. والكلمتان تصدران عن جذر واحد: نسيان المنعم، وتضخم الذات حتى تملأ مجال الرؤية.

المحطة الثانية والخمسون

المفاتيح التي تنوء بالعصبة

(وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ)

لم تكن ثروة قارون مالا عاديا، بل كنوزا ثقل مفاتيحها جماعة من الأقوياء. يرسم القرآن ضخامة الغنى بصورة المفاتيح؛ فإذا كانت المفاتيح وحدها بهذا الثقل، فكيف بما وراء الأبواب؟

لكن الآية تقول: (وَآتَيْنَاهُ). هذه الكلمة وحدها تكشف كذب قارون كله. الله هو الذي آتاه، لكنه تصرف كأنه أنشأ النعمة من عدم. وما إن يغيب فعل (آتينا) عن وعي الإنسان حتى يظهر في لسانه قول: (أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي).

كل ما في يد الإنسان يسبقه عطاء لم يصنعه: العقل الذي خطط به، والجسد الذي عمل به، والفرصة التي وجدها، والأرض التي أقلتة، والناس الذين احتاج إليهم. حتى أكثر العصاميين اعتدادا بنفسه يقف فوق آلاف النعم التي لم يخلق منها واحدة.

فالمال ليس دليل استقلال الإنسان، بل دليل شدة افتقاره؛ لأنه ما كان ليحصل عليه لولا شبكة من أقدار الله تحيط به من كل جانب.

المحطة الثالثة والخمسون

لا تفرح: الفرح الذي يقطع النعمة عن المنعم

(إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

ليس المراد تحريم السرور بنعمة الله، فالقرآن يدعو إلى الفرح بفضلِهِ ورحمته. وإنما هو الفرح البطر الذي ينتفخ به الإنسان، ويغيب فيه المنعم عن النعمة، وينظر صاحب المال إلى الناس من عليّ.

هناك فرحٌ يقول: الحمد لله الذي تفضل، فيفيض تواضعاً ورحمة. وفرحٌ يقول: انظروا إلى ما صنعت، فيفيض كبراً واستعلاء. الأول يربط النعمة بالسما، والثاني يحبسها داخل الذات.

إن الله لا يحب الفرحين الذين تجعلهم النعمة أشد غفلة، وتتحول البسمة على وجوههم إلى شماتة بالمحرومين. فليست كل سعادة طاهرة؛ قد يكون السرور نفسه معصيةً إذا بُني على امتنان الآخرين، أو على الشعور بأن المال شهادة تفوق أخلاقي.

المحطة الرابعة والخمسون

وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ)

لم يقولوا له: اترك كنوزك، بل اجعلها طريقاً إلى ما عند الله. فالقرآن لا يخاصم المال، وإنما يخاصم أن يصير المال غايةً تُعبد.

في قوله: (فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ) معنى واسع: اجعل داخل النعمة نفسها طريقك إلى الآخرة. بعلمك، وقوتك، ومالك، ومكانتك؛ لا تهرب من الدنيا، بل غير وجهتها. الأشياء لا تكون دنيويةً أو أخروية بذواتها فقط؛ قد يتحول الدرهم إلى درجة في الجنة إذا خرج بحق، وقد يتحول العلم إلى وقود للكبر إذا أريد به التعالي.

(وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

إنه توازن القرآن الذي لا يطلب من الإنسان أن يلغي فطرته. كل من الحلال الطيب، والبس الجميل، واسكن البيت الواسع إن أقدرك الله؛ لكن لا تجعل النصيب هو المصير، ولا تحول محطة السفر إلى وطن أبدي.

(وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ)

لم يقل: أحسن من عندك؛ بل ذكره بأن إحسانه إلى الناس امتدادٌ لإحسان الله إليه. أنت لا تبدأ دائرة الخير، وإنما دخلت فيها متلقياً، ثم طُلب منك أن تمرر ما واصلك.

وهذا أرقُّ ما يعالج به الشح: أن ترى كل نعمة في يدك رسالةً لا ملكيةً صماء، وأن تسأل: ماذا يريد الله أن يصل إلى عباده من خلال ما أعطاني؟

(وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)

يمكن للمال أن ييني، ويمكن أن يفسد. يفسد حين يشتري الضمائر، ويصنع طبقات الاحتقار، ويحتكر حاجات الناس، ويحوّل المجتمع إلى سوق تُباع فيه الكرامة.

فالثروة ليست مسألة شخصية خالصة؛ لها أثر يمتد في الأرض. ومن ظن أن له مطلق الحرية في ماله نسي أن المال الذي في يده يتحرك داخل حياة الآخرين.

المحطة الخامسة والخمسون

إِنَّمَا أُوتِيْتَهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي)

بهذه الجملة قطع قارون الحبل بين العطية والمعطي. نسب النعمة إلى علمه وحده، وجعل ذكاه سبباً كاملاً لغناه.

لم ينكر وجود الله بلسانه، لكنه أنكر فضله في وعيه. وهذا لون خفي من الجحود: أن يؤمن الإنسان بالله في عقيدته النظرية، ثم يعيش كأن نفسه هي مصدر كل ما عنده.

قال: (عِنْدِي)، فكأن العلم ملك خاص نشأ من ذاته. ونسي أن العقل الذي تعلم به هبة، وأن الفرصة عطاء، وأن الأسباب كلها لو اجتمعت دون إذن الله لم تفتح له باباً.

إن عبارة قارون تتكرر كلما قال الناجح للمحروم: أنا وصلت لأنني أستحق، ولو كنت مثلي لوصلت. يختزل شبكة الأقدار كلها في كفاءته، ثم يجعل ثروته حكماً على قيمته وقيمة الآخرين.

فيرد القرآن:

(أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا)

إذا كان عليك ضمن لك المال، فهل يضمن لك بقاءه؟ وإن كانت قوتك صنعت نجاحك، فلماذا لم تحم من كانوا أشد منك قوة وأكثر جمعا؟

إن التاريخ مقبرة مقولات الغرور. كم من إنسان ظن أن ما بين يديه حصيلة عبقريته التي لا تقهر، ثم خرج من كل شيء في لحظة! ليست المشكلة أن يعرف الإنسان قدراته، بل أن ينسى حدودها، وأن يتوهم أن السبب الذي منحه الله إياه يستطيع أن يستقل عن إرادة الله.

(وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ)

يعلم الله ذنوبهم علماً لا يحتاج معه إلى استفهام استعلام. وقد تأتيهم العقوبة بعد قيام الحجة فلا يملكون أن يخفوا ما صنعوا أو يعيدوا كتابة القصة.

المحطة السادسة والخمسون

نخرج على قومه في زينته

(نَخْرُجُ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ)

لم يقل: خرج إلى قومه، بل (عَلَى قَوْمِهِ)، وكأن في خروجه معنى الاستعلاء. لم يلبس الزينة ليستمتع بالجمال وحده، بل ليصنع مسافة نفسية بينه وبين الناس، وليجعلهم يرون أنفسهم صغاراً في مرآة ثرائه.

إن الاستعراض ليس عرض الأشياء فحسب، بل ترتيب مشاعر الآخرين حولها. يريد المستعرض أن يوقظ النقص في نفوسهم، وأن ينتزع إعجابهم، وأن يجعل حياته معياراً يحاكون به حياتهم.

وهنا انقسم المشاهدون إلى فريقين:

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

لم يقل القرآن: الذين يعيشون في الدنيا؛ فكل الناس يعيشون فيها. قال: (يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)، أي صارت الدنيا منتهى إرادتهم وسقف رؤيتهم.

رأوا الزينة، ولم يروا الحساب. رأوا الموكب، ولم يروا الكبر الذي يسوقه. رأوا ما في يد قارون، ولم يروا ما فقدته قلبه. ولهذا قالوا: (ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ).

فالإنسان يقيّم الحظ بحسب ما يريد. من أراد الدنيا رأى كثرة المال غاية الحظ، ولو كان صاحبه خاوي الروح. ومن أراد الله رأى الحظ العظيم في قلب مهتدٍ وعمل صالح، ونفس لا يملكها ما تملك.

وكم يصنع الاستعراض من أحزان زائفة! ينظر الإنسان إلى ظاهر حياة غيره، ثم يحتقر نعمته، دون أن يعلم ما وراء الواجهة. يقارن باطن ألمه بظاهر زينة الآخر، وهي مقارنة لا يمكن أن تكون عادلة.

المحطة السابعة والخمسون

ويلكم ثواب الله خير

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا)

كان الزاهدون في زينة قارون هم الذين أوتوا العلم؛ لأن العلم الحقيقي لا يكس المعلومات فقط، بل يصحح معيار القيمة. يرى به الإنسان ما وراء البريق، ويعرف عمر الأشياء، ويميز بين النعمة والفتنة.

لم يقولوا إن مال قارون لا قيمة له مطلقاً، بل قالوا: (ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ). نقلوا المقارنة من اللحظة إلى العاقبة، ومن العين إلى البصيرة، ومن خزائن الأرض إلى ما عند الله.

(لِمَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا)

فالأماني وحدها لا تصنع الثواب. لا بد من إيمان يعيد بناء الإرادة، وعمل يترجم الإيمان إلى أثر.

ثم قال الله:

(وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ)

لا يبلغ هذه الرؤية إلا الصابرون؛ لأن يريق العاجل شديد، والقلب يتأثر بما يرى. يحتاج الإنسان إلى صبر حتى لا يبيع ما لا يراه بما يلمع أمامه، وإلى صبر على تفاوت الأرزاق، وصبر عن الحسد، وصبر على طريق العمل الصالح حين يبدو أهل الزينة أسبق منه حفظاً.

الصبر هنا ليس مجرد احتمال الحرمان، بل حماية الميزان الداخلي من أن تعبث به المظاهر.

المحطة الثامنة والخمسون

نخسفنا به وبداره الأرض

لم يطل الموكب كثيراً:

(نَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)

خرج على قومه في زينته فوق الأرض، فابتلعت الأرض مع زينته. كان يتعالى عليها بقصره، فإذا بها تفتح من تحته وترده إلى ضعفه الأول.

ولم يخسف الله به وحده، بل (بِهِ وَبِدَارِهِ). الدار التي كانت عنوان مجده صارت جزءاً من مشهد هلاكه. فحين تنفصل النعمة عن الشكر قد تتحول من حصن يحمي صاحبه إلى ثقل يهبط به.

(فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ)

أين الخدم؟ أين الحرس؟ أين الذين ازدحموا حول موكبه؟ سقط المال في امتحانه الحقيقي؛ لم يستطع أن يشتري له لحظة نجاة.

كان يظن أن كثرة ما يملك تعني كثرة ما يحميه، لكن الأشياء لا تنصر صاحبها من الله. وما دام الأمن معلقاً بشيء قابل للزوال، فهو خوف مؤجل لا أمان.

وفي سورة واحدة يغرق فرعون بملكه، ويخسف بقارون بماله. هذا طغيان السلطة، وذاك طغيان الثروة؛ وكلُّ منهما وجد نهايته في عنصر كان يظن أنه يعلو فوقه: فرعون الذي قال (أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِّصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ) أهلكه الماء، وقارون الذي ثقل على الأرض بكنوزه ابتلعه الأرض.

المحطة التاسعة والخمسون

حين استيقظ المتمنون بعد زوال الفتنة

(وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَانَ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ)

بالأمس تمنوا مكانه، واليوم يحمدون الله أنهم لم يكونوا فيه. لم تتغير خزائنها في ليلة؛ الذي تغير هو فهمهم.

وهكذا قد يتنى الإنسان شيئاً لو أعطيه لكان فيه هلاكه. يرى الصفحة الأولى من العطاء ولا يرى الأخيرة، فيلح على الله أن يمنحه ما منع عنه رحمةً به.

كم من حرمان نبيكه، وهو الحاجز الذي يفصلنا عن خسف لا نراه! وكم من تأخير نحسبه إهمالاً، وهو عناية تدفع عنا فتنة لا تقوى عليها قلوبنا!

قالوا:

(لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا)

عرفوا أن عدم حصولهم على ثروة قارون لم يكن نقصاً محضاً، بل منّة. فالمنن ليست كلها فيما أعطى الله؛ بعضها فيما صرف، وبعضها في باب أغلقه، ومكانة حجبها، وأمنية لم تتحقق.

ثم قالوا:

(وَيَكَاذِبُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)

لقد صحح الخسف تعريفهم للفلاح. بالأمس كان قارون عندهم ذا حظ عظيم، واليوم صار مثلاً على انعدام الفلاح. فمن يحكم على الحياة من ظاهرها يضطر إلى تغيير أحكامه كلها انكشف فصل جديد؛ أما من يحكم بوعد الله فيرى العاقبة قبل أن تظهر.

لقد سقط قارون، لكن القصة لا تريد منا أن نقف عند حفرة الخسف؛ تريد أن تنظر في أعماق قلوبنا: كم من قارون صغير يختبئ في قولنا: هذا بجهد وحدي؟ وكم من متمن يقف فينا مأخوذاً بموكب الآخرين؟ وكم من نعمة لم نعرف فضل الله فيها إلا حين رأينا كيف يمكن أن تتقلب؟

والآن، بعد أن سقط طغيان السلطة في البحر، وطغيان المال في الأرض، تتجه السورة إلى ميزانها الأخير:

لمن تكون الدار الآخرة، وما العلو الحقيقي، وكيف يعود النبي ﷺ إلى مكة التي أُخرج منها كما عاد موسى إلى الأرض التي خرج منها خائفاً؟

المحطة الستون

الدار الآخرة: للذين لا يريدون علواً ولا فساداً

بعد أن عرضت السورة طغيان فرعون في سلطانه، وقارون في ثروته، جاءت الآية التي تكشف الجذر المشترك بينهما:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا)

لم يقل: لا يعلون فقط، بل قال: (لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا). فالإيمان لا يعالج حركة اليد وحدها، وإنما ينزل إلى المنبع الذي تصدر عنه الحركة: الإرادة الكامنة في القلب.

قد لا يملك الإنسان أسباب العلو، لكن نفسه تمنى لو ملكتها لتستكبر. وقد يبدو متواضعاً لأن الواقع لم يمنحه موضعاً يتعالى منه. أما الامتحان الحقيقي فهو: ماذا يريد قلبه لو أُعطي القدرة؟

إن الله لا ينظر فقط إلى ارتفاع البناء، بل إلى الشهوة التي بنته. وقد يسكن رجل بيتاً صغيراً وفي صدره فرعونٌ يتربص بعرش، وقد يملك آخر سلطاناً واسعاً ولا يريد به إلا إقامة الحق وخدمة الناس.

العلو المذموم أن يريد الإنسان أن يكون فوق الخلق لا بينهم، وأن يطلب رفعة نفسه بإذلال غيره، وأن يفرحه أن تتضاءل القامات ليبدو طويلاً. إنه جوع لا يشبعه منصب؛ لأن صاحبه لا يريد منزلةً فحسب، بل يريد أن يرى الناس تحته.

وفرعون قال: لا أرى لكم من إله غيري. وقارون قال: إنما أوتيته على علم عندي. كلاهما جعل ذاته مركز العالم؛ هذا احتكر الحقيقة والسلطة، وذاك احتكر الفضل والثروة.

أما أهل الآخرة فلا يريدون علواً ولا فساداً. قد يعلو مقامهم، لكنهم لا يطلبون العلو على عباد الله. وقد ينتشر أثرهم، لكنهم لا يجعلون الانتشار معبوداً. إنهم يريدون أن يرتفع الحق، ولو خفيت أسماؤهم وراءه.

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

هذه هي الكلمة التي كانت تسري تحت مشاهد السورة كلها. العاقبة لم تكن للذي علا في الأرض، ولا للذي خرج في زينته، ولا لمن ازدحمت حوله الجنود؛ كانت للمتقين.

والتقوى ليست عزلةً خائفة من الحياة، بل بصيرة تجعل صاحبها يرى النهاية وهو في أول الطريق. يترك ما يشتهي الآن لأنه يرى الحساب، ويصبر على ما يكره لأنه يرى الوعد، ولا يخدعه علو الباطل؛ لأنه يعرف أن العاقبة لا تُقاس بضجيج البدايات.

قد يملك الطغاة الحاضر الظاهر، لكن المتقين يملكون العاقبة بوعده الله. وما أقصر حاضراً لا عاقبة له، وما أغنى صبراً ينتهي إلى رضوان الله!

المحطة الحادية والستون

الحسنة التي تنمو والسيئة التي لا يُزاد عليها

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا)

لم يقل: فله مثلها؛ بل (خَيْرٌ مِنْهَا). لأن العبد يعمل بقدر ضعفه، والله يجزي بقدر كرمه. يقدم الإنسان حسنةً محدودة، فيتلقاها ربُّ لا حد لفضله، فينميها ويباركها ويجعل له منها ما لم يكن يبلغه عمله وحده.

قد تكون الحسنة كلمةً رفعت قلباً، أو صدقةً أخفاها صاحبها، أو موقف عدل لم يصفق له أحد، أو دمعةً غسلت موضعاً في الروح. ينسى الإنسان فعله، لكنه يجده عند الله أكبر مما تركه.

أما السيئة:

(وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

هنا العدل المحض؛ لا زيادة في العقوبة، ولا مؤاخذة بغير العمل. الحسنة تنمو في رحمة الله، والسيئة تقف عند حدها في عدله.

وما بين (خَيْرٌ مِنْهَا) و(إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) تظهر سعة الرحمة: الفضل عند الجزاء بالحسنة، والعدل عند الجزاء بالسيئة.

لكن الآية تقول في الحالين: (جَاءَ). كأن الإنسان يصل يوم القيامة حاملاً ما صنعه؛ فلا تختفي الأعمال بانتهاء لحظاتها، بل تسير معنا إلى الله. الكلمة التي غادرت فمك لم تَفَنَ، والموقف الذي حسبته عابراً لم ينتهِ؛ كل شيء يمضي إلى موعد اللقاء.

المحطة الثانية والستون

الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد

بعد قصة موسى الذي خرج من مدين عائداً إلى مصر، وبعد مشاهد الضعف والتمكين، يجيء الوعد للنبي محمد ﷺ:

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ)

كان النبي ﷺ قد أُخرج من مكة، أحب بلاد الله إليه، وغادرها وقلبه متعلق بها. خرج لا لأنه ضاق بها، بل لأن أهلها ضاقوا بالنور الذي حمله. وكانت الهجرة، في ظاهر العين، مغادرةً للأرض وتركاً للبيت وانتصاراً مؤقتاً للذين آذوه.

لكن الذي فرض عليه القرآن تكفل برده.

لم يقل له: قوتك ستردك، ولا أصحابك، ولا خططك؛ بل قال: (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ). فالذي حملك الرسالة لن يتركك في منتصف الطريق، والذي أخرجك بها سيعيدك بها، والذي كلفك بأمانتها قد كتب لها ولحاملها عاقبة لا يملك المكذبون منعها.

ما أعظم الصلة بين التكليف والتكفل! حين يفرض الله على عبده طريقاً، فإنه لا يكل أمره إلى نفسه. قد يكون الطريق مؤلماً، لكن اليد التي اختارته له لا تفارقه.

وكان قصة موسى كلها كانت تمهيداً لهذه الجملة. يا محمد، لقد خرج موسى من مصر خائفاً يترقب، ثم أعدناه إليها رسولاً غالباً. وأنت تخرج من مكة مستضعفاً، وسيردك ربك إليها ظاهراً على من أخرجوك.

يتشابه الطريقان، وإن اختلفت التفاصيل: خروجٌ تحت الخوف، وغربةٌ يتشكل فيها المستقبل، ثم عودةٌ لا تشبه الخروج. فالذين رأوا النبي ﷺ يغادر ظنوا أنهم أغلقوا صفحة دعوته في مكة، ولم يعلموا أن الهجرة لم تكن انطفاء الرسالة، بل انتقالها من طور الدعوة المحاصرة إلى بناء الأمة.

والمعاد يحمل معنى الرجوع؛ رجوعٌ إلى مكة بوعد الله، ثم الرجوع الأكبر إليه يوم القيامة. فكل طريق المؤمن، مهما تعددت منازلها، ينتهي إلى الله.

المحطة الثالثة والستون

ربي أعلم بمن جاء بالهدى

(قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

يُعلم النبي ﷺ أن يرد الاتهامات إلى علم الله. فليس عليه أن يهدر روحه في كل خصومة، ولا أن يجعل اعتراف الناس مصدر يقينه. الله يعلم من جاء بالهدى، وذلك يكفيه ثباتاً وإن اجتمع العالم على تكذيبه.

إن صاحب الرسالة قد يُحاصر برواية خصومه عنه حتى يكاد يشعر أن الحقيقة تحتاج إلى أصواتهم لتصبح حقيقة. فتأتي هذه الآية لتعيده إلى المركز: ربك أعلم.

ما دام الله يعلم صدقك، فلا تغيّر الطريق بحثاً عن تصفيق العابرين. وما دام الله يعلم هدى ما تحمل، فلا تجعل ضجيج الضلال يشككك في النور الذي بين يديك.

لكن هذا اليقين لا يعني الكبر؛ فالنبي ﷺ لا يقول: أنا أعلم بنفسِي، بل يقول: (رَبِّي أَعْلَمُ). إنه يسلم الحكم لمن يعلم السرائر والعواقب.

المحطة الرابعة والستون

ما كنت ترجو أن يلقي إليك الكتاب

(وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ)

لم يكن النبي ﷺ يصنع مشروع نبوة، ولا يطلب زعامة روحية، ولا ينتظر أن يوحى إليه. جاءه الكتاب رحمةً من ربه، وحمل معه ثقلاً يهتزله القلب.

إن النبوة لم تكن طموحاً بشرياً تحقق، بل اصطفاً إلهياً نزل على قلب أمين. وهذا من دلائل صدقه ﷺ: لم يعيش قبل الوحي يبني صورة المدعي، ولم يتدرج في طلب سلطان، بل فاجأه التكليف وهو يخلو في غار حراء باحثاً عن الحق.

(إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ)

القرآن رحمة بالنبي؛ أخرجه من حيرة البحث إلى يقين الوحي. ورحمة بالناس؛ أخرجهم من أسر الأهواء إلى نور الله. لكنه رحمة ثقيلة الأمانة؛ فالرحمات الكبرى لا تأتي دائماً في صورة الراحة، قد تأتي في صورة رسالة تستهلك العمر.

ثم يبنى على هذه النعمة موقف:

(فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ)

تذكرنا العبارة بعهد موسى:

(فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ)

كأن السورة تصل بين الرسولين في موضع الالتزام الأخلاقي: من أُعطي الكتاب لا يجعل قوته عوناً للباطل. لا يسنده بصمت، ولا يضيفي عليه شرعية، ولا يمنحه من مكانته ما يقوي ظلمه.

فالقرآن ليس معرفةً باردة؛ إنه يغيّر جهة الانحياز. ومن حمل الوحي ثم صار ظهيراً للباطل فقد ناقض معنى ما يحمل، وإن أكثر من تلاوته.

المحطة الخامسة والستون

لا يصدّنك عنها

(وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ)

إنها صيغة تحذير شديدة؛ لأن طرق الصد ليست دائماً سيفاً ظاهراً. قد تأتي في صورة ترغيب، أو مساومة، أو تعب متراكم، أو رغبة في إرضاء الناس، أو خوف من ثمن الثبات.

قد يقول الباطل لصاحب الدعوة: لا تترك رسالتك كلها، خفف منها قليلاً؛ لا تسكت عن الحق، لكن قل نصفه؛ لا تنخر إلى الظلم، لكن لا تسمه. وهكذا يبدأ الصد بتنازل يبدو صغيراً، ثم يجد المرء نفسه بعيداً عن الآيات وهو يظن أنه ما زال يخدمها.

(وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ)

لم يقل: ادعُ إلى نفسك، ولا إلى قومك، ولا إلى مجدك. الدعوة التي يريدّها القرآن طريقاً إلى الله، لا منصّة لبناء الأسماء.

إن الداعية قد يبدأ داعياً إلى ربه، ثم تتسلل ذاته إلى المساحة، فيحزن لأن الناس لم يلتفتوا حوله لأنهم ابتعدوا عن الله، ويفرح بانتصار اسمه أكثر من انتصار المعنى. فتأتي الآية لتصحح الوجهة: (إِلَىٰ رَبِّكَ).

(وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

لا تشرك في قصدك، ولا في خوفك، ولا في رجائك. اجعل الرسالة لله، واستمد قوتك منه، ولا تمنح أحداً من الخلق موضعاً لا يليق إلا بالخالق.

المحطة السادسة والستون

كل شيء هالك إلا وجهه

تأتي خاتمة السورة فتجرد القلب من كل ما تعلق به:

(وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

بعد فرعون وقارون، وبعد القصر والكنوز، وبعد الخوف والعودة، تبقى الحقيقة الواحدة التي تحمل الوجود كله: (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ).

هذه ليست جملة تُضاف إلى أطراف الحياة، بل مركزٌ يعيد ترتيبها. إذا استقرت في القلب تحرر من فرعون؛ لأنه لا يخاف عبداً كما يخاف الله. وتحرر من قارون؛ لأنه لا يرى المال مصدراً للغنى. وتحرر من الجمهور؛ لأنه لا يطلب منه القيمة. وتحرر من نفسه؛ لأنه لا يجعل هواه إلهاً.

ثم تأتي الجملة التي تطفئ بريق كل زائل:

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)

كل شيء..

القصر الذي تربى فيه موسى، والمدينة التي خرج منها، ودار قارون، ومفاتيح الكنوز، والوجه التي أعجبها الزينة، والأيدي التي صفقت للطغاة، والأجساد التي ارتجفت خوفاً، والأيام التي ظن الناس أنها لا تنتهي — كل شيء هالك.

لا يعني ذلك أن الأشياء كلها معدومة القيمة؛ بل يعني أن قيمتها لا تكون في ذاتها، وإنما بصلتها بالله. فما أريد به وجهه بقي أثره وثوابه، وما انقطع عنه تلاشي وإن ملاً الدنيا لحظة.

إنها آية تحرر الإنسان من الابتزاز الذي يمارسه الفناء. لماذا تبيع دينك لمن سيهلك؟ لماذا تظلم لتحصل على شيء سيزول؟ لماذا تفني قلبك في طلب إعجاب وجوه ستغيب كما يغيب وجهك؟

من عرف أن كل شيء هالك لم يعد أسير الأشياء، بل أخذ منها قدر حاجته، ووضع قلبه عند الباقي.

(لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

تعود خاتمة السورة إلى الحقيقة نفسها: الحكم له، والرجوع إليه. بدأت القصة بطاغية ظن أن له الحكم، وانتهت بإعلان أن الحكم كله لله. وبدأت بطفل ضعيف يُلقى في اليم، وانتهت بعودة الخلق جميعاً إلى ربهم.

الخاتمة

حين يكون الخوف أول الطريق إلى النصر

سورة القصص ليست قصة رجل نجا من الماء فحسب؛ إنها قصة عناية لا تتوقف، وإن تبدلت صورها.

كانت العناية تابوتاً حين لم يكن للطفل مأوى، ومحبةً في قلب امرأة حين دخل بيت عدوه، وتحريماً للمراضع حين أراد الله رده إلى أمه، وربطاً على قلبها حين أوشك الحزن أن يفضح السر.

وكانت العناية ندماً يطهر موسى بعد الوكزة، ورجلاً يسعى من أقصى المدينة، وصحراء تنقله من القصر إلى صفاء التجرد، وامرأتين عند ماء مدين، وظلاً يرفع تحته دعاء الفقير، وبيتاً يقال له فيه: (لَا تَخَفْ).

وكانت العناية سنوات صامته في رعي الغنم، وناراً لمحها في الليل، ونداءً من الشجرة، وأخاً يشد الله به عضده، وعصاً تحمل البرهان أمام عرش الطاغية.

إن الله لم يُخرج موسى من الخوف دفعةً واحدة؛ ربّاه خلاله. نقله من خوف الطفل الذي لا يدري، إلى خوف الأم التي تثق، إلى خوف الشاب الذي يترقب، إلى خوف الرسول الذي يعرض ضعفه على ربه، ثم إلى أمان المواجهة.

وهكذا لا يكون الخوف دائماً علامة أن الله تركك؛ قد يكون الممر الذي يريك فيه. ولا تكون الغربة دليل ضياع؛ قد تكون مدينك التي يعيد الله فيها بناءك. ولا يكون الباب المغلق حرماناً؛ فقد حرمت المراضع على موسى ليعود إلى أمه. ولا يكون الخروج هزيمة؛ فقد خرج موسى مطارداً وعاد رسولاً، وخرج محمد ﷺ من مكة وسُيرد إليها بوعد ربه.

وتضع السورة أماننا صورتين للطغيان: فرعون الذي استعلى بالسلطة، وقارون الذي استعلى بالمال. هذا ابتلعه البحر، وذاك ابتلعه الأرض؛ وبقي موسى الذي لم يطلب علواً ولا فساداً.

فالنصر في سورة القصص ليس مجرد سقوط عدو، بل انتصار المنهج الذي يصنع إنساناً لا يتحول إلى فرعون إذا ملك، ولا إلى قارون إذا اغتنى. قد ينتصر المظلوم على

ظالمه ثم يحمل منطقه؛ أما النصر القرآني فهو أن يخرج من الاستضعاف دون أن يخرج من العبودية لله، وأن يملك القوة دون أن تملكه.

وفي قلب السورة سرها كله:

إن وعد الله قد يولد قبل أن تظهر أسبابه.

حين قال الله:

(وَنَزِيدُ أَنْ تُمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا)

لم يكن في يد المستضعفين شيء. لكن الإرادة الإلهية كانت قد بدأت تعمل: في رحم أم، وفوق ماء نهر، وداخل قصر العدو، وفي قلب امرأة قالت: (لَا تَقْتُلُوهُ).

إن الله لا يحتاج إلى أن تكون قوياً ليبدأ نصرك؛ يكفي أن يريد. ثم يصنع من ضعفك طريقاً، ومن خوفك تربية، ومن غربتك إعداداً، ومن مكر عدوك جسراً إلى الوعد.

غير أن وعد النصر ليس تبريراً للكسل؛ فأمر موسى أرضعت وألقت وأرسلت أخته تقصه، وأخته راقبت، والرجل سعى محذراً، وموسى خرج ومشى وسقى وعمل وعاد وواجه. كان التوكل قلباً معلقاً بالله، وجوارح تمضي في طاعته.

وهذه هي الخلاصة التي تتركها سورة القصص في قلب قارئها:

إذا أمرك الله أن تلقي أحب الأشياء في يمين الثقة، فلا تحف عليها؛ فإن الله أرحم بها منك. وإذا أخرجك من موضع ألفتته، فلا تظن أن الطريق انتهى؛ فقد تكون النار التي ستغير حياتك في آخر الصحراء. وإذا رأيت فرعون عالياً أو قارون خارجاً في زينته، فلا تحكم على القصة قبل عاقبتها. وإذا ضاقت الأسباب حتى لم يبق في يدك شيء، فقل كما قال موسى:

(رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)

ثم امض.

فربما كانت الإجابة قد خرجت إليك، تمشي على استحياء..

والعاقبة، مهما طال الطريق، ليست لأشد الناس بطشاً، ولا لأكثرهم جمعاً، ولا لأعلاهم صرحاً، بل لمن صبر واتقى وتوكل ولم يرد علواً في الأرض ولا فساداً:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقِينَ).

وبهذا اكتملت رحلتنا التدرجية في سورة القصص، من المهد المهدد إلى الوعد المحقق، ومن خوف الإنسان إلى أمان الله، ومن استعلاء الطغاة إلى بقاء وجهه سبحانه:

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ).